النثر الفني عند جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ
بواعثه وفنونه

أ.م.د. مزاحم مطر حسين
رياض حمزة عبود

الملخص

يرومُ هذا البحث تسليط الضوءَ على جانبٍ إبداعي هام من جوانب شخصية الإمام السيوطي ، إذ عُرِفَ عنه العالم والمُحدِّث والفقيه والمُفسِّر واللغوي والنحوي ولم ينل الجانب الأدبي اهتماماً كبيراً من لدن الباحثين.

اشتمل البحث على مبحثين هما : بواعث النثر الفني التي أسهمت إلى حدٍّ كبير في خوض السيوطي النثر الفني من خلال تصانيف جاوزت المائة كمّا.
والمبحث الثاني يتناول أبرز الفنون النثرية التي تجسد فيها نثره الفني مثل مقاماته ورسائله وغيرها،التي أسهمت في جعله من كتّاب العصر المملوكي البارزين .

المقدمة

يتناول هذا البحث دراسة النثر الفني عندَ عَلَمٍ عُرِفَ بشخصيتهِ العلمية في الحديث والفقه والتفسير واللغة والنحو ، إلاَ أنَّ الجانب الأدبي لم ينل اهتماماً من حيث تناوله ودراسته على الرغم من الكم الكبير لمصنفاته التي توزعت بين المقامات والرسائل والمقالات وغيرها ،وهي في مجملها تصور جانباً من حياة السيوطي ومجتمعه وما حفل به من صراعات وعلاقات بين العلماء وعامة الناس وأرباب السلطة ، وقد اعتمد الباحث على المنهج التاريخي في دراسة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي انتمى إليها

أدب السيوطي واتخاذها وسيلةً وطريقةً لفهمه وتفسير خصائصه واستجلاء غوامضه ، والمنهج الوصفي في تناول الفنون النثرية وكشف جوانبها وتحديد العلاقات بين عناصرها.

توطئة

عاش السيوطي في العصر المملوكي في حكم دولة المماليك البُرجيّة ، التي حكمت مصر والشام (سنة ٧٨٤" ه إلى ٩٢٣ه)[١]، وهم رقيق أبيض استجلبتهم الدولة الأيوبية في جيوشها فانقلب الأمر لهم بعد وفاة الملك الصالح أيوّب (حكم بين ٦٣٧-٦٤٧ ه)[٢]،إذ تميَّز حكمهم بالقوة والبطش والفتن

فالمماليك وإن نشأوا على القوة والبطش في حكمهم ، لكن هذا لا يعني أنَّهم أهملوا الجانب التنظيمي لدولتهم، ولم يلتفتوا للعلم والثقافة ، بالقدرِ الذي ينفعُ مصالحَهم في الحكمِ والقيادةِ على الأقل .

لقد اهتموا بتنظيم شؤون دولتهم ، وساروا على نهجِ أسلافهم الأيوبيين، الذين هم كذلك ابقوا على تنظيم ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي ، وما وصله من عناية وازدهار ، بل أنَّ المماليك قد طوّروا ديوانَ الكتابة والإنشاء[٣] ؛لاتساع دولتهم وامتداد حكمهم .

وتتمثلُ عنايتُهم بديوان الإنشاء بمظاهر كثيرة نقلتها كتبُ التاريخ ، منها أنَّهم لم يولوا وظيفة الإنشاء إلاّ لمن كانَ من خيرةِ الكتّابِ والبلغاء والعلماء ؛ فعَظُمَ قدرُ مَنْ يتولاها، وبلغوا مراتبَ عاليةً في سُلَّمِ السّلطة ، وصلَ بعضُهم إلى نيابة السلطان[٤]، وصارتْ صناعةً يطمحُ لها ذوو الأدب ؛ فذاعَ فيها صيتُ أسماء أدبية شغلت هذا المنصب ، وحفلت تآليفهم الأدبية بنماذج كتاباتهم الديوانية من رسائل وتقاليد وبشارات وغيرها .

وقد أسهم ذلك في تطور النثر في العصر المملوكي بشقيه الرسمي

والفني ،اللذان تداخلا إلى حدٍّ كبير في الصياغة والأساليب ، بالإكثار من المحسنات اللفظية والبديعية، فأضحت(الكتابةَ في هذا العصر صناعةً فنية قائمة بذاتها ، وليس من باب المصادفة أن يستخدمَ الكتّابُ مثلاً "صناعة الإنشاء" أو"صناعة التَّرسل " أو غيرها من اصطلاحات)[٥] ، فهي توحي بأنَّ النثرَ الفني في العصر المملوكي بلغَ الغايةَ من الإتقان والإجادة.

هذا الازدهار في النثر ، لا يتعارضُ مع ما وُسِمَ به العصرُ المملوكي من اضطراب سياسي واجتماعي واقتصادي ، بل أنَّ ظاهرةَ التَّقدم العلمي والأدبي في عصر التَّخلف السياسي ليست شيئاً غريباً ، فالذي يستقرىء فترة ضعف الدولة العباسيّة في عهد البويهيين يجد أنَّ سوقَ الأدب من شعر ونثر كانت رائجة ومزدهرة.

المبحث الأول
بواعث النثر الفني عند السيوطي

اجتمعتْ بواعثٌ كثيرة أسهمتْ في بناءِ شخصيّة السيوطي العلمية والأدبية ، بعضها يرجع لظروف تنشئته منذ طفولته حتّى اكتمال أدوات التحصيل عنده ، وأثر بيئته الاجتماعية في تشكّل هذه الشخصية ، إذ نشأ يتيمَ الأب ، وتكفَّلَ برعايتِهِ الشيخ كمال الدين بن الهُمام[*]، فاجتهدَ منذُ طفولته على تحصيلِ العلم ، وظلَّ هذا شأنُه حتى وفاته سنة(٩١١ه)، فلم يتركْ فنّاً أو علماً إلاّ وأخذَ سبلَهُ ، وكانتْ شخصيتُهَ حاضرةً في كلِّ ما كتبَ، ومنهجيته العلمية واضحة ، إذ كان يقدِّمُها في أغلب خطب كتبه التي ألَّفها ،ودأبَ على توجيهِ أدبه في قضايا تتعلق بدينه وظروف مجتمعه ،ولعلَّ الكمَّ الكبير لتصانيفه وعنواناتها توضح هذا الجانب.

وسنُركِّز القولَ في ثلاثةِ أمور نحسبها قد أثّرتْ في نتاج السيوطي

الأدبي والعلمي ، وهي تتداخلُ مع بعضها ؛ لتشكلَ صورةَ العصرِ الذي عاشَهُ وتفاعلَ مع أحداثهِ ، فأسهمتْ في تشكيلِ هويتهِ الأدبية، وسيّرَتْ توجهه بشكل أو بآخر؛ ليكونَ أدبُهُ متفاعلاً مع محيطهِ ، وليصورَ جوانبَ مهمــة لعصــرهِ وبيئته ولعلَّ هناك جوانبَ أخرى كانت باعثاً لازدهار نتاجــه النثــري، لكــنَ الباحث يحصر الأمرَ حول ما تقدَّم لارتباطها بسيرته التي كتبها في كتبــه ، وكانت باعثاً له في التصنيف والتأليف .

١- موسوعية السيوطي

إنَّ الموسوعيةَ في أوضح دلالاتها تشيرُ إلــى الســعةِ والشــمول فــي الاطلاع، ومن ثم التصنيف في كلِّ علمٍ وفن ، وكانتْ تعبرُ عن ثقافةِ العصر التي ترى (الأديبَ بالمفهوم العربي الأصيل، يجب أنْ يقفَ على ثقافةِ عصرهِ، وأنْ يعبرَ عن شمولِ ثقافته تعبيراً أدبياً جميلاً أصيلاً)[٦].

وعلى الرَّغم من أنَّ التأليف الموسوعي لم يكنْ وليدَ العصر المملوكي ؛ إلاّ أنَّه أصبحَ ظاهرةً بارزةً لأدب ذلك لعصر ، ومــا يميزهــا فــي العصــر المملوكي كونها صارتْ أكثر اتساعاً، وصبغتْ الكثيرَ من التصانيف ، ووسمت أصحابها بظاهرة الموسوعية ، وقد عدَّها بعض الدارسين مرتبطة بهذا العصر دون سواه ؛ لارتباطها بسياقات حضارية وتاريخية لمصر عبــر عصــورها المختلفة[٧] .

وما ذكره أدباء العصر المملوكي في مصنفاتهم يعززُ على هذا الأمــر، فالأدب عند ابن خلدون (ت٨٠٨ه) (الأخذُ مــن كــلِّ علــمٍ بطــرف)[٨]، والقلقشندي (ت٨٢١هــ) في "صبح الأعشى" قد رَسَمَ ثقافةَ الكاتبِ الموسوعية وأدوات تحصيله، ووزَّعها في علوم شتى ، أهمها: علوم العربيــة ، كاللغــة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، والعلوم الدينية ، كعلــوم تفســير القرآن الكريم والحديث الشريف، وخطب العرب ورسائل بلغــائهم وقصــائد

الشعراء وأمثال الحكماء ، ومعرفة أنساب العرب وتـاريخهم فـي الجاهليـة والإسلام، وتاريخ مصر والإلمام باللغـات الأخـرى كالفارسـية واليونانيـة والسريانية والعـبرية ، إلى آخرِ تلك الثقافات التي ترفدُ الأديـبَ وتشـكلُ عاملاً مهماً في تكوين شخصيته الأدبية وارتقائه الفني[٩].

فالموسوعيةُ إذن سِمةٌ مشتركة بينَ أغلبِ أُدباءِ العصرِ وعلمائهِ ، وكان القرنُ الثامن الهجري وما بعده في مصـر (عصـرَ الموسـوعاتِ الأدبيـة والتاريخية العامة ، وإذا لم تكنْ فكرة الموسوعات الجامعة في الأدب العربـي مصرية محضة، فقد بلغتْ ذروتَها على الأقل في مصـر، وأخـرجَ الكتّـاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها)[١٠].

ويُعدُّ جلال الدين السيوطي ، من أبرز كتّاب العصر المملوكي ، ومـن الصعب كما يرى "عبد الله عنّان" أن نخصه بعلم من علوم الدين أو اللغـة أو الأدب، فقد خَلّفَ لنا تراثاً هائلاً من كتب التفسير والحديث والفقه وعلوم اللغة والتاريخ والأدب[١١].

وعلى الرَّغم من تأخر السيوطي زمناً ، لكنَّهُ قد سارَ في الـنهج ذاتـه الذي سلكه الكتّاب قبله ، بيدَ أنَّهُ تميزَ عن غيره بالشِّمول والسعة والإحاطة في تعدد الموضوعات التي تناولها ، فلم يقفْ عند علم أو فن ، بل تناولَ أغلـبَ العلومِ والفنون ، وقد وصفه تلميذه عبد القادر الشاذلي (ت٩٣٥ه) بأنَّه :(كان جبلاً في سائرِ الفنون والمعارف)[١٢]، وقد عرضَ عبدُ القـادر الشـاذلي فـي "بهجة العابدين"- وهو كتاب تناول سيرة شيخه وإضاءة لجوانب مهمة في حياة السيوطي – يقول في موسوعية علمه:(انفردَ في عصره بغزارة العلم ،وكثرة الحفظِ وسعة الاطلاع ،وكان- رحمه الله- يصنفُ في اليـوم الواحـد ثـلاث كراريس ، ويكتبها بخطه الكريم النفيس)[١٣].

والدلائلُ على تمكنه وسعة علمه كثيرة الموارد، فيما كُتب عنه أو قيل

بحقهِ ، فالسيوطي يطالعنا بقدرته التأليفية فيقول :(ولو شئتُ أنْ اكتبَ في كلِّ مسألةٍ مصنفاً بأقوالها النَّقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها؛لقــدرت إلى ذلك من فضل الله)[١٤]. وقد أطلقَ الدكتور مصطفى الشكعة على طريقــةِ السيوطي الموسوعية ، حينَ قارنه مع غيرهِ من موسوعيي عصره – بالأفقية – ؛ وفقاً لإحاطته العلوم والفنون تحصيلاً وتأليفاً وتنوعاً كمّاً وكيفاً ، وهذا ما لا نجده عند كثير من المؤلفين الموسوعيين في العصر المملــوكي [١٥]، وقــد ذكرَ السيوطي العلومَ والفنون التي أحاطَ بها رواية ودرايــة فقــال :(رُزِقــتُ التبحرَ في سبعةِ علوم: التفسير والحديث والفقه والنحــو والمعــاني والبيــان والبديع على طريقة العرب والبلغاء ،لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة)[١٦].

فهذه العقلية الموسوعية التي بانتْ في مجموع تصانيفه ؛ أسهمت إسهاماً فاعلاً في خوضهِ لفنونِ النثر الفني ، وتصنيفه للكثيرِ مِن الرَّسائل والمقامات ، التي ساحتْ في شتّى المسائل، وتداخلتْ فيهــا الأجنــاس النثريــة وتنوعــت موضوعاتها ، ولم يكتفِ بلونٍ واحد ، بل سارَ فيها تنوعاً وتعدداً ، ولم تقفْ صفته العلمية ورتبته الدينية حائلاً دون أن يكونَ للأديب نصيبٌ مــن جهــده وفكره.

وحرّي بنا أن نشيرَ إلى أنَّ الموسوعية التي تعني السعة والشمول قد وســمت مقاماته، فكانت من الكثرة حتّى اختلف الباحثون في عددها ، وقد أشارَ سمير الدروبي وقد حققها أنها نيّفت علــى الثلاثــين مقامــة فضــلاً عــن تنــوع موضوعاتها، فحوتْ أدباً وتأريخاً وطبّاً وحديثاً وفقهاً وتفسيراً وســيرة ذاتيــة وسياسة ونقداً ووصفاً[١٧]، فهي دائرة معارف دينية ودنيوية ، حيث تنمُّ عــن مخزون لغوي وعلمي ومعرفي ضخم [١٨].

والرَّاجح أنَّ تنوعَ موضوعات مقامات السيوطي وكثرتهــا ، تعكــسُ ثقافته الموسوعية بشكل جلّي ، وقدرته على التبحر في الفنون والعلوم ؛ التي

وفرت له مساحة كبيرة لهذا التنوع ، الذي تجسدت فيه شخصية السيوطي الأدبية والدينية والعلمية والطبيّة، إذ نجدُ " إبراهيم سليم" في جمعه لبعضِ مقامات السيوطي جعلها " أدبية طبية"، واهتم بالجانب الطبّي الذي مثلته فقال: (هي تحفةُ الأديب ، وبُغية الطبيب، وشفاء السقيم، وتذكرة العليم ،من آداب زاهية وعقاقير شافية)[١٩]. فالجانب الطبّي العلاجي في مقامات كثيرة كالمِسكيّة في أنواع الطيب، والتُّفاحيّة في أنواع الفواكه ، والزُّمردية في أنواع الخضراوات، والفستقية في أنواع النقول ، والياقوتية في أنواع الجواهر واضحٌ ، وقد أكثر فيه السيوطي بوصفاته الطبيّة وفوائد النبات للإنسان .

وهي تتسقُ مع شخصية السيوطي المعرفية لأنَّ(ذكرَ المنافعِ الطبية ، لم يكنْ في مقامات السيوطي سوى إكمال للصورة المعرفية الموسوعية التي أراد السيوطي أنْ يعبرَ عن ثقافته الواسعة حتى في مجال الطب)[٢٠]، فضلاً عمّا نجده من حشد لمصطلحات العلوم والفنون في مقامات أخرى مثل المقامة النيلية والطاعونية ليصبَّ في هذا المنحى .

والتنوع في حشد العلوم والفنون في مقاماته ورسائله ، جانبٌ أول في موسوعيته ، أمّا الجانب الثاني : تناوله الموضوعَ الواحد لمراتٍ متعددة وبعناوين مختلفة ، وخيرُ ما يمثل هذا الجانب ما كتبه في (نجاة والدي النبيﷺ) وقد ردَّ على منكريها بست رسائل لموضوع واحد ، ناهيك عمّا تداوله في مقاماتِ ورسائلهِ مِنْ ذكرِ القضية وإيقاظها ذمّاً لمنكرها ، وإثباتاً لموقفه فيها .

فقد صنَّفَ فيها(مسالك الحنفا في والدي المصطفى،ونشر العلمين في إحياء الأبوين الشريفين، والمقامة السندسية في النسبة المصطفوية، والسبل الجلية في الآباء العلية، والدرج المنيفة في الآباء الشريفة ، والتعظيم والمنَّة في إنَّ أبوي رسول الله في الجنة)[٢١]، ولعلَّ ما ساعد السيوطي في تفوقه

الموسوعي ، ما وفَّرَهُ العصر المملوكي من بيئة علمية حيّة، شـغفت بـالعلم، ووفرت لها المكتبات والخوانق والمدارس، فوسم بعصر التأليف الموسوعي، فضلاً لتأخره زمناً قد أفاده في الاطلاع والتحصيل.

٢- خصوماته الأدبية والعلمية

يبدو أنَّ الخصومةَ العلمية والأدبية كانت أمراً شائعاً في ذلك العصـر بينَ علمائهِ وأدبائهِ، بل قد تنشرُ ذيولَها على مَنْ دونهم مثل تلامذتهم وأنصارهم ، وهي بكلِّ أحوالها قد تصلُ لاتفاقٍ إنْ كانت غايتها علميـة ، فيقبـل أُحـدُ الطرفين برأي الآخر ويقبلُ ما كانَ عليه(٢٢)من مأخذ ، أو تبقى الخصومةُ قائمةً وتنقلبُ لعداوةٍ شخصية تنأى عن جانبِ العلم؛ لتنبتَ أطرافهـا فـي الأمـورِ الخاصة المتعلقة بالشخصِ وأهلهِ وعيالهِ(٢٣).

مهما يكن من أمر ، فموضوعُ الخصومات له جوانبُ متعددة في عصر شاعَ فيه التصنيفُ وأزدهر، وكثُرتْ المدارسُ ، وتنافس العلماء في الرّيـادة والتصدّر ، وتدفقَ طلبةُ العلم من كلِّ الأمصار ؛ ساعينَ لكلِّ مَنْ شاعَ ذكره ، وعلا شأنه ، تأليفاً وتصنيفاً ورواية ودراية ، ولم يسلم حتّـى أفـذاذِ العلمـاء والمُحـدِثين بمنـأى عـن حلبـة الخصـومة وميـدانها ، فـابن حجـر العسقلاني(ت٨٥٢ه) وهو من أعلام علم الحديث والفقـه والتـاريخ يتصـدى لخصومه ، وينظم شعراً في ردِّهم ، وقد أخذَ السيوطي بيتين له ليـردّ علـى السَّخاوي مقامة الكاوي هما(٢٤) :

شرحي الذي سارَ في الآفاقِ سائرُهُ وَنالَ من وردِهِ الدّاني معَ القاصي

وأنتَ شرحُكَ في البيتِ اختليتَ بهِ مثلُ الّذنوبِ التي يخلو بها العاصي

فخصومات ابن حجر على الرَّغم من أنَّه كان(يهضمُ نفسَهُ على جـاري عادة أهل العلم والدين)[٢٥] ، كانت حاضرة ، وقد أفرد لها السَّخاوى في" التبر المسبوك" حديثاً طويلاً لاسيَّما ما كان بينه وبين علم الدين البلقيني[**](ت٨٦٨ه)، في المنافسة على منصب القضاء ، وبعض الوظائف مثل النظر في جامع ابن طولون والناصرية وغيرها [٢٦].

هذا فيما كان بين العلماء ، أمّا من خصومة الأدباء في العصر المملوكي فلم تقلْ شأناً، فالتنافس في إظهار الإجادة كان دافعاً لابن حجة الحموي (ت ٨٣٧ه) في حملته على الصفدي (ت٧٦٤ه) لولعه بالجناس فألَّفَ كتاباً هو" جنان الجناس" الذي قرأه ابن نباتة (ت ٧٦٨هـ) مصحفاً بـ "جنان الخناس" تهكماً ، وليؤلف ابنُ نباتة كتابَ " خبز الشعير" فاضحاً سرقات الصفدي من شعره[٢٧].

فكان التنافسُ بين العلماءِ والأدباء يوقدُ أوارَ الخصومة ، وقد يصلُ الأمرُ للتحاسد على فضلٍ ناله، أو مكانة تبوأها، كما في خصومات السيوطي مع أقرانه ، التي تبدو ملامحها وآثارها متجسدة في كثير من مؤلفاته ومواقفه ، فسارَ وقعها كالسّيل حتى لنجده يشير إليها في مقدمات كتبه العلمية ، لتوحي أنَّ الخصوماتِ قد أثّرَتْ فيه التأثير الكبير ، ويبدو أنَّها كانت حافزاً له في تحقيق مبتغاه وطموحه.

ولا أدلّ على ذلك في مقدمة شرحه لتفسير البيضاوي" نواهد الأبكار وشوارد الأفكار" وكذلك في مقدمة كتاب "تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي " وغيرها[٢٨].

وكان لها وقعٌ عليه دونَ شك ، ولعل عنوانات ردوده تفضي لإقرار مدى عمق الخصومات وأثرها في نفسه ، مثل" ساحب سيف على صاحب

حيف " ، والكاوي في تاريخ السّخاوي ، وتنبيه الغبـــي ، وقمـــع المعـــارض وغيرها[٢٩].

إنَّ ردودَ السيوطي على خصومهِ كانت ميداناً رحبـــاً لعـــرض أفكـــاره وعلومه، ومثّلت صورة واقعية لطبيعة عصره ، لا سيَّما بين طبقات العلمـــاء والأدباء .

وكان في طليعة خصومه شمس الدين السَّخاوي ، ومحمد عبـــد المـــنعم الجوجري (ت٨٨٩هـ) ، وشمس الدين الباني (ت٨٩٥هـ) ، وبرهان الـــدين بـــن الكركي(ت٩٢٢هـ)، وقد خصَّهم بذكر اسمائهم صريحةً في عنوانـــات رســـائله ومقاماته في الرَّدِ عليه ، مثل "الدوران الفلكي على ابن الكركي"، "والجـــواب الزكي في قمامة ابن الكركي" ، "والكاوي في تاريخ السخاوي" ، "وهدم الحاني على الباني" و"اللفظ الجوهري على خباط الجوجري"[٣٠]،(وتراوحتْ أســـاليبُ هذه الردود بين العنف والعنف الشديد، مع سخرية حـــادّة وتعـــريض مريـــر، بأولئك الذين ساقوه سوقاً إلى معركة الخصومة)[٣١].

أمّا الموضوعات التي أثارت خصومه عليه فهي كثيرة ومتنوعـــة، مـــن اليسر أن نستشفها في ردوده ، ويمكن إجمال أهمها في القضايا التالية:

- خصومات ذاتية ، تتعلق بالحسدِ للمكانة العلمية ، والحظوة عند مريديه ، وافتخاره بما وصل إليه من مرتبة الاجتهاد والتجديد ، وكثرة مؤلفاته [٣٢].
- خصومات دينية ، تتعلق بالإفتـــاء، والآراء الدينيـــة المغلوطـــة والقيـــاس الخاطىء[٣٣].
- خصومات علمية، تتعلق بالتأليف والسرقات الأدبية والمنهج العلمـــي فـــي التأليف وما شاكله ، ومسائل نحوية ولغوية وأدبية [٣٤].

ولم تكنْ خصوماتُه بمعزلٍ عن بعضها ، بل كانت تتداخل فيها القضـــايا والاتهامات في بعض مواردها وهذا أمرٌ طبيعي في الخصومة ؛ لرد صـــولة

الخصم وكسر شوكته ، لكنَ السيوطي في أغلب ردوده التزمَ الطرحَ الموضوعي في تسلسل ردوده ومناقشتها ، وهو يُرجعها في الأغلب لخلفية دينية تتعلق بمرجعيته وثقافته ، فلا تجدُ ردّاً في الغالب إلاّ وكان منطلقه أو غايته ترتبط بالمسائل الدينية ، ولعلَّ هذا مرتبط بما كان عليه خصومه من رتبة ومنزلة وظيفية ، ففيهم الشيخ والمُحدِّث والقاضي ، فضلاً عمّا يمثله هو من موقع ديني.

كما تميزت ردوده بصياغتها الفنيّة العالية ، من خلالِ الأسلوب البديعي، والصياغة الجمالية المتقنة في الشكل والبناء، وإكثاره من الشواهد الشعرية [٣٥].

وهو لم يقفْ عندَ صياغة فنية واحدة ، بل كان ينوّع في أساليبه ؛ لأنَّ الغايةَ لم تكن ردوداً لشخوص ودفع اتهاماتها ، بل هو يقصد قارئاً واعياً يحدده فيقول :(فكتبتُ تلكَ المقامة لتسيرَ في الآفاق، وتخلدَ في بطونِ الأوراق ،ويقفُ عليها اللبيبُ والشاعرُ والأديبُ والمؤرخُ الأريب،ويعرفوا أُسَّ الأمر ومبناه،ومقصده ومغزاه، ومبتدأه ومنتهاه)[٣٦].

كما سلطت هذه الخصومات الضوءَ على جوانبَ عديدة من سيرته الذَّاتية ، ففي مقامة "طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقُمامة "، التي ردَّ فيها على ابن الكركي ، كاشفاً فيها سيرتَهُ العلمية ، وفاضحاً خصمه ودوافعه ، المتمثلة بالغيرة والحسد على بزوغ نجم السيوطي وانتشار تصانيفه ، يقول فيها:(يا أيُّها الناسُ أصيخُوا إليَّ أنبئكُم بتأويلِهِ ، وأحدثكُم بجملةِ الأمرِ وتفصيلهِ ، اعتدى عليَّ عَادٍ وظلمني ظُلمَ عَاد، وبَدأني بالإساءةِ وعَادَ ، وأكثَرَ من السّفه ، وملأَ بشتمي فاهُ والشَّفَه ، ومدَّ لسانَهُ إليَّ وهو قصيرٌ،ونظرّ إليَّ بعينِ النقصِ فأنقلبَ إليهِ البصرُ خاسئاً وهو حسير، فأهملته سنينَ ،وعلمتُ أنّي متى مِلتُ عليه ميلةً صار له صراخٌ وأنين، وسارَ لما أكتبهُ في الىفاق رنين

وطنين)[٣٧]، والجدير بالذكر أنَّ هذه المقامة أقرب للكتاب، إذ امتازت بطولها المفرط ،حتّى بلغت حوالي مائتي صفحة ، حشدَ فيها السيوطي كل موهبته الإنشائية؛ لردِّ من خصمه ، وليعرض الفرقَ بينَ ما يكتبه هو ، وما يكتبه خصمُهَ من افتقاد لفنية الكتابة والتي جعلها (قُمامة)

أمّا الخصومات التي كان محركها الاختلاف في الإفتاء فقد كان شديداً فيها ، متبرماً في جهل قائلها، وربما يُصرِّح بتكفيره وفق أدلته الشَّرعية ، وكانت بعض فتاوى السيوطي محل تعريض ورد ، منها : فتواه بشأن البروز على شطوط الأنهار ، وفتواه بهدم بيت للفساد ، وفتواه بنجاة والدي الرسول الأكرم وغيرها[٣٨].

كما كانَ لاتهامهِ بالسَّرقة والإغارة على تصانيف غيره ؛ الأثر الكبير الذي دعاه للردِّ في رسائل خاصة ، أو يلمح له في ردوده الأخرى ، وأول مَن بزّه بهذا الإدعاء السَّخاوي حينَ ترجمَ له في "الضوء اللامع" فشنع عليه ووصمه بالإغارة على كتب المحمودية (فأخذَ منها التصانيف المتقدمة التي لا عهدَ لكثير من العصريين بها في فنون ، فغيّرَ فيها يسيراً ، وقَدَّمَ وأخّرَ، ونسبها لنفسه)[٣٩]، ويوردُ مسميات كتب لأعلام كابن حجر وغيره ، ويدَّعي سرقة السيوطي لها .

والترجمة وافية في المعايب، فما تركَ السَّخاوي أمراً مشيناً إلا وذكره ، حتّى أفضى به الأمر للتطرق للأمور الشخصية مثل علاقة السيوطي بوالدته ، وأصل والدته وكونها من السراري وغيرها [٤٠].

ولعل هذا التحامل الشديد من السَّخاوي ، قد أضاءَ بواعثه الشوكاني (ت١٢٥٠ه) حين قال:(السَّخاوي وإنْ كان إماماً غير مدفوع ؛ لكنه كثيرُ التَّحاملِ على أكابر أقرانه، كما يُعرفُ ذلك مَنْ طالعَ كتابَهُ "الضوء اللامع"، فإنّه لا يقيمُ لهم وزناً ، بل لا يسلمْ غالبهم من الحطِّ عليه ، وإنّما يعظمُ شيوخَهُ

وتلامذتَهُ ومَنْ لم يعرفْهُ ممن ماتَ في أول القرن التاسع قبلَ موتهِ ، أو مَنْ كان من غير مصره ، أو يرجو خيرَهُ، أو يخافُ شرَهُ)[٤١] ، فالحسدُ والتحامل على العلماء المعاصرين له ، كان مبرراً للخصومة عند الشّوكاني ، ووافقه عليه كثيرٌ من الدَّارسين المعاصرين[٤٢].

مهما يكن من أمر الخصومات ، فالأهمية تكمنُ فيما كان باعثاً لنثر السيوطي الفني وإبداعه، فأغلب ردوده في الخصومات نُسجتْ فنياً؛ لتقعَ موقعَ القبول عندَ قارئِها ؛ ولتنتشر في الآفاق وتذيع بين الناس ، ويتقبلونها أحسن قبول.

فكانت تضجُّ بألوان البديع والاقتباسات الشعرية والنثرية الكثيرة ، فهي صدى واضح للتعبير عن الذّات والنثر الفني كما هو معلوم أولى أسسه أن يكون معبراً عن ذات منشئه .

إنَّ رسائلَ السيوطي ومقاماته في الخصومات ، تحفلُ بتصوير الذّات بكلِّ جوانبها، فكراً وسلوكاً ، صدَرَ فيها عن آرائهِ ومواقفهِ التي عبّر عنها بأسلوبه الفني ، وكشفَ فيها عن القيم الإنسانية والأخلاقية والعلمية التي تميزت بها شخصيته .

فكانت ميداناً يُنفّسُ فيه عن لواعج ألمه، وخفايا فكره ، فيقول :(وجعلتُ تلكَ المقامة عبارةً عن حكايةٍ وشكاية للأحباب ، مما أوصلَهُ إليَّ من طول عمره من النكاية)[٤٣]. وأيُّ أداةٍ أقدرُ على التوصيل من النثر الفني المتقن ، فكان مما وافقَ السيوطي النصرة والصواب فضلاً عن تمكنه العلمي ، أسلوبُهُ الإنشائي الذي أبدعَهُ وسارَ فيه سيراً حثيثاً حتّى وصلَ الأمرُ بتلميذه الشاذلي أنْ يقلدَهُ زعامةَ أهلِ الإنشاء في عصره، لِما أنشأه من (مقامات في فنون شتى ، ما سُمِعَ بها ولا في المنامات)[٤٤]

فالسيوطي واعٍ لأطرِ الفن النثري ، ومُدركٍ للأسس الفنية للمقامة ، فتراه يعيبُ على خصمه " ابن الكركي" جهله بهذا الفن ، ويُصحِّف الاسمَ قصداً لتكون قُمامة ، ويهديه سبيل إبداعها ، التي لن يهتدي إليها سواه ، ولم يملك أسرارها إلّاه .

فصاغَ مقامةَ " العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة " ، ليوضحَ فيها الجانبَ الأدبي ، والذي يوفرَ له كلَّ إمكانياته ليصوغها ويبدعها، لتلقي أحسن القبول ، يقول فيها : (فعملت ُمقامة ًيقلدُها طوقُ الحمامة ، كأنَّها تاجٌ مكلل، أو روضٌ مُعلل، أو عقد مجوهر، أو كوكب دُرِّي أزهر)(٤٥).

ويمضي في الإشادة بها، ويحشد لها كثيراً من التشبيهات الحسيّة ؛ لكشف رونقها وجمالها ، بل يضفي عليها وقعَ السحر لسامعها فهي (لو قُرئت على عليلٍ شفته ُ ، أو سقيمٍ أنعشته ، أو محزون شرحت صدره)(٤٦).

فهو يلمس ُوقعها ، كفن ٍأدبي له سماته المميزة ، إن ائتلفت فيه روائع الألفاظ وبدائع المعاني؛ وصلت لمبتغاها الجمالي والتوصيلي على أحسن حال .

وهو يُدركُ اكتمالَ أداتهِ الأدبية واستعداده الإبداعي، فيمضي مفتخراً بما ينشئه وإن كانت الخصومة موضوعها، لكنما يبقى الجمال الفني حاضراً في كل كلمة وسطر ، فهي عنده قد حوتْ (روائعَ الألفاظِ وبدائع المعاني ، وبهجةً تستحقُ أنْ تُزفْ على رأس رئيس المغاني ، كما حوت من علمٍ وأدب ونُكتٍ تنسل من كل حدب ... ، وكم سلاسة وعذوبة وحلاوة سهلت كل صعوبة ، فلذلك سارَ بها السيرُ، وطارَ بها الطيرُ وسلكت كل مجازٍ ، ولم يحجزها عن الشام والحرمين حجاز ، وطربتٍ عندَ سماعها المسامعُ ، فاهتزتْ عند قراءتها المجامعُ)(٤٧).

وحين يكشفُ جوهرَها، ويميطُ اللثامَ عن بدرها، يقاربها مقابلة مع مقامة خصمه(القُمامة)،فيقول:(وزعمَ أنَّهُ يقابلُ مقامتي التي هي نهر ٌعذبٌ فراتٌ ومغتسل بارد وشراب ، بمقامته التي هي خرارة قناة تجري من سراب)(٤٨).

قسمة ضِيزَى هي ، خرجَ منها السيوطي منتصراً بأدبه ونثره ،وحشده في ردّه لكلِّ ما من شأنه تحسين أسلوبه في اللفظة والتراكيب ، فليس العلمُ شأنٌ وترجيح لصاحبه، بل كان الإبداع الأدبي هو الموجه لأيهما المالك لزمامه ، المتمكن في حياضه .

وفي ردِّهِ على"الجوجري" يطالعنا السيوطي الأديب المفتخر بأدبه ،الموغل في مديات الإبداع ، فيصرّح قائلاً :(فألفت ُ في مقابلة ذلك " اللفظَ الجوهري"، وهو جوهريٌ كاسمِهِ ، مسكي ٌ في حدِّهِ ورسمهِ ، على قانون العلم والأدبِ ،وأسلوب العلماءِ ذوي الرُّتب ،ليس فيه كلمة ٌمُوحشة ، ولا لفظة مُفحشة)(٤٩).

وربما هذه الجمالية الأدبية كانت سبباً في انتشار مقاماته وشيوعها ، وانكفاء خصومه وتقهقرهم في ردِّها ، أو مجاراتها ، فهو دائم التفاخر بأسلوبه ، لاسيما مع خصومه ، وعلى الرَّغم من حشد النصوص بالمحسنات ، وما تستدعيه الصنعة من تكلّف ، لكنها في الأعم تعزز مقدرته الكتابية ، وبلوغه الغاية في هذا الفن النثري وإبداعه في عضره ، كما أنَّ شخصيةَ السيوطي واضحةٌ فيها .

قضية اجتهاده.

شَغلتْ قضيةُ الاجتهاد، وكونه المُجدد للمائة التاسعة حيِّزاً في خصومات السّيوطي مع اقرأنهِ وأندادهِ، ويعتقدُ الباحثُ أنَّ من الإجحاف الإشارة إليها لماماً ؛ كونها جزءاً من خصوماته العلمية ، بل نجدها غاية ً سعى لها ، وهدفاً ارتجاه ووفر له طاقاته العلمية والإبداعية على أقصاها ، وقدَّمَ له المصنفات

الكثيرة ، ووقف طوداً يصدُّ الهجمات ، ويدفع الألسنة للظفر به وإقراره .

فهو يذكرُ في رسالته " الّرد على من أخلد في الأرض"(٥٠) أنَّ الاجتهادَ واجبٌ وفرضٌ لا مناص من تعطيله ونفيه ، وليس هنالك مَنْ أحقُّ به سواه ، إذ يقول :(إنَّ الاجتهادَ فرضٌ من فروض الكفايات في كلِّ عصر، وواجبٌ على أهلِ كلِّ زمانٍ أنْ يقومَ به طائفةٌ في كلِّ قطر ، وليس على وجهِ الأرض من مشرقِها إلى مغربِها أعلمُ بالحديث والعربية منّي ، إلاّ أن يكونَ الخضر أو القطب أو وليّاً من أولياء الله تعالى)(٥١).

فهو لم يتركْ لإثباتها مسألة أو ردّاً إلاّ وأشار فيها لاجتهادِه وتفرده ، لاسيّما بعد أنْ شاعَ أمرُ دعواه ، فلا يسكتُ لمدعٍ ببطلان قضيته ، في "الحاوي " يذكر سائلاً يسأله عن حديث النبي ﷺ (إنَّ النبيَّ لا يمكثُ في قبره ألف سنة)(٥٢) ، وعلى الرَّغم من إقراره ببطلانه، لكنه يلتزم الصمت ولا يكتبه ؛ تأدباً لمن صرَّحَ بصدقيته لكن موقفه يتراجع حينَ يتعلقُ في الطعن باجتهاده ؛ فينبري صادحاً بالرَّدِ ويكتبُ فيه المسائل التفصيلية ، فيقول : (فإنَّهُ ثَّمَ مَنْ ينفخُ أشداقَهُ ، ويدَّعي مناظرتي وينكر عليَّ دعوايَ الاجتهاد والتفرد على رأس هذه المائة ، ويزعمُ أنَّهُ يعُارضني ويستجيش عليَّ مَن لو اجتمع هو وهم في صعيدٍ واحد ونفخت عليهم نفخةً واحدةً صاروا هباءً منثوراً ، فدارَ السائل ُعلى الناسِ، وأتى كلَّ ذاكرٍ وناس، وقصدَ أهلَ النجدة والباس ، فلم يجد من يزيل عنه الإلباس، ولم يجدْ باباً يطرقه ُغيرَ بابي ، وسَلَّمَ الناسُ أنَّه لا كاشف له بعد لساني سوى واحد وهو كتابي ، فقصدني القاصدون في كشفهِ ، وسألني الواردون أنْ أُحبِّرَ فيه مؤلفاً يزدان بوصفه، فأجبتهم إلى ما سألوا، وشرعتُ لهم منهلاً فإن شاءوا علوا وإن شاءوا نهلوا ، وسميته "الكشف عن مجاوزة هذه الأُمة الألف ")(٥٣).

وحريٌّ أنْ نشيرَ إلى أنَّ مسالةَ الاجتهادِ وتفرده بالعلم وأنْ تبلورت فكرةً في خلده وسعى لها كمطلب ديني سامٍ ، حرصَ على إتمام أدواته التحصيلية حتى اكتمالها ،فلم يعلن وصوله لرتبة الاجتهاد حتى سنة ٨٨٨ه ، وما يؤكد هذا القول ما ذكره في مقدمة كتابه " صون المنطق في الكلام " فقال:(قد كنتُ قديماً في سنة سبع أو ثمان وستين وثمانمائة ،ألّفتُ كتاباً في تحريمِ الاشتغال بفن المنطق سميته "القول المشرق"، ومضى على ذلك عشرون سنة ، فلمّا كان هذا العام وتحدثتُ بما أنعمَ اللهُ عليَّ من الوصول إلى رتبة الاجتهاد)(٥٤).

فوصوله لمرحلة اكتمال أدواته في تلكم السنة التي ما انقضت حتى جاء قراره في اعتزال التدريس والفتيا، ليتفرغَ في صومعته الأثيرة في جزيرة الروضة ؛منكباً على التأليف وإشغال النفس بما قرره لنفسه ، متصدياً للعلم ومتفرغاً للتصنيف والكتابة في كلِّ فنٍ .

فجاءت كلمته :(وقد كملت عندي آلات أدوات الاجتهاد)(٥٥) إعلاناً صريحاً، وكلمة مدوية كان لها صدى عند خصومه .

إنَّ مطالعة سيرةِ حياته التي أثبتها في تصانيفه ، يوضح لنا هذا الجانب الخفي في أوله ،المُعلن فيما بعد، وإنْ كانَ له إشارات واضحة ، ففي رحلتهِ للحج وهو في مطلع شبابه سنة ٨٦٩هـ ، كان مفتخراً بمقدرته العلمية والأدبية فأنشأ مقاماتٍ فاخرَ بها علماء مكة ، وليثبتَ علوه وتمكنه وهو في العشرين من عمره .

يقول متحدثاً عن رحلته :(ومما وقعَ لي فيها أنَّني أَلفتُ فيها كراسةً على نمطِ "عنوان الشرف " في يوم واحد، تحتوي على نحو ومعانٍ وبديع وعروض وتاريخ، وسميتُها : "النفحة المسكيّة والتحفة المكية")(٥٦)، ويقول في موضعٍ آخر : (ثم وضعتُ لهم مائةَ كلمةٍ تحتوي على مواعظَ وكلم على نمط "الكلم النوابغ " ،وسميتُها : "درر الكلم وغرر الحِكم" ، ثم اختبرتُ خيولَ ذهني

في إنشاء مقامات، فسارَ جوادها في هذا الميدان أحسنَ سير، وأحرزت قصبات السبق ولا ضير)[٥٧].

فالسيوطي قد وعى هدفه في أولِ دربه، ولم يتزعزع عن مرامه بل كان عنيداً مفتخراً بإمكاناته ، ونعتقد أنَّه كان واعياً تمام الوعي أنَّ النثرَ الفني ميدانه الأرحب؛ لكشف علمه وردّ خصومه ، ولا أدلَّ على ذلك لخوضه ميدانه وطرقه فنونه على الرغم من حرصه على تقديمه نفسه عالماً دينياً مجتهداً ، فهو يصرّح بقدرته الأدبية قائلاً :(وقد أكملتُ العشرين، فنمَّ عليَّ عُرف الأدب ولا كعرف النسرين ، فظللتُ بين سائلٍ ليرى هل من طائل، وممتحن لعله يمتهن)[٥٨].

ففكرة الاجتهاد قارة في أدبياته ، بسطَ أدلتَها في أكثر من موضع، ونظمها نظماً ،وأورد الأحاديث والأقوال في المجددين حتّى زمنه ؛ راجياً أن يكونَ ممثل عصره وواحد زمنه، ويطالعنا في كتابه "حسن المحاضرة " بترجمة لنفسهِ، شفع عمله أنَّهُ سارَ على ما سارَ عليه العلماءُ والمؤرخين قبله مِنْ ذكرِ تراجمهم في كتبهم ، لكن المميز واللافت في هذه الترجمة، أنَّه وضعها في فصل عنوانه "ذكر مَن كان بمصر من الأئمة المجتهدين"[٥٩].

وهو وإن لم يصرحْ بالأمر، بل أشارَ له إشارةً بعد أنْ استعرضَ الحديثَ المروي عن النبي–ﷺ–(**إنَّ اللهَ يبعثُ لهذه الأمة على رأسِ كلِّ مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها)**[٦٠]، فيستدرك قائلاً :(ومن اللطائفِ أنَّ شرطَ المبعوثين على رؤوس القرون مصريون، عمر بن عبد العزيز الأولى، والشافعي في الثانية، وابن دقيق العيد في السابعة، والبلقيني في الثامنة، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر)[٦١].

إنَّ السيوطي وهو المترنم بتفوقه ، والمفتخر بتمكنه ، لم يعلنه ولم يتجرأ للتصريح إلاّ بعدَ أن صارَ الأمرُ شائعاً في مجتمعه ،وقد كان لخصومه فضلُ

في إذاعته وإثباته دون أن يقصدوا ذلك ، ففي رسالة " النجح الى الصلح" يقول:(وأمّا ما يتعلق بدعوى الاجتهاد، فإني لم اقلْهُ في الابتداء صريحاً بلساني، وإنّما ذكرتُ ذلك في تآليف، فنقله مَنْ قَصَدَ الشنعة لا الشهرة ، فلما روجعت فيه صرت أُقرر لمن راجعني فيه أمره ، مع أنَّي عددتُ تصدي هذا العدو لإشهاره؛ فضلاً من الله أجراه على يديه)[٦٢].

فهذه الدعوى التي لم يصرّح بها أولاً ، قد أفاده في نشرِها خصومُهُ من حيث لا يشعرون ، حتّى اتفقوا على اختلاف خصوماتهم في إنكارها ، أو كما قالَ السَّخاوي فقد (قامَ الناسُ كافة حين ادعى الاجتهاد)[٦٣]، حتّى وصلَ بهم الأمرُ طلب تدخل للسلطان ليعقدَ مجلساً للمناظرة ، ويصفُ السيوطي حال خصومه قائلاً: (لهم ضجيجٌ وعجيج ولا كعجيجِ الحجيج ، وجرّوا قضية دعوى الاجتهاد واجتمعوا بكلِّ كبيرٍ في البلد من كاتب السِّر والأمراء والرؤساء ؛ وسألوهم في رفعِ الأمرِ إلى السُّلطان ليعقَد بيني وبينهم مجلساً يناظروني فيه ، فلما بلَغَني ذلك ، قلت : العلماءُ قد نصّوا على أنَّه لا يسوغ للمجتهد أنْ يناظرَ المُقَلِدَ، فمناظرتي تحتاجُ إلى حضورِ مُجتَهِدَين : مجتهد يناظرني، ومجتهد يكونُ حَكَمَاً بيني وبين مَنْ يناظرني)[٦٤]، وفي ردّه تعجيز لهم ، فهو يحدُّ المجتهدَ بإحاطتهِ بالعلوم ، والخوضِ في كلِّ فنونها ، ويعقدُ مقارنةً بينه وبين علماءٍ سابقين ، فيجدُ تمُكنه وإجادتهُ ابعد مدى وأمكنَ شأوا ، مع اعتراف معاصريه بأحقية أولئك في رتبة الاجتهاد ، وهو قد بلغَ الاجتهادَ المطلق في ثلاثة علوم هي: الأحكام الشرعية، والحديث النبوي والعربية، فيقول:(إنَّ رتبةَ الاجتهادِ في هذه الأمورِ الثلاثة ،كانت مجتمعةً في الشيخ "تقي الدين السُّبكي[***]"،ولم تجتمع في أحدٍ بعده إلاّ فيَّ)[٦٥]، كما أنَّ خصومَه حينَ أنكروا الاجتهاد مطلقاً ، لم يجرؤ أحدهم ادعائه لنفسه ، وهو كما يرى السّيوطي

الجهل بعينه ، ودلالة على سوءِ الفهمِ وقصرِ الاطلاع وقلَّة العلم ، لأنَّ الاجتهادَ منصوصٌ عليه في كتب الأئمة المتقدمين والمتأخرين[٦٦].

ولا ريبَ أنَّ دعوى الاجتهادِ كانت مُحركاً فاعلاً ودافعاً قوياً في غزارة نتاجه العلمي والأدبي؛ ليثبتَ صدقَ إدعائه ، من خلال رسائل ومقامات طافتْ سائرةً بين جموع القرّاء لتأكيد ريادته ، وربما لولا الجانبُ الأدبي فيما صاغه وأنشأه ، ما كان لهَ أن يتبوأ مكانته العلمية ، ويدفعَ أقوالَ المشككين والحسدة والخصوم ، حتّى رجعَ منهم مَنْ صَدَّقَ وَسَلّمَ له بالاجتهادِ، كما وقف الى جانبه بعض المؤرخين المنصفين ، كالشوكاني في "البدر الطالع " الذي فنّد اتهامات السخاوي بعد أن تتبعها وردّ عليها ردّاً علمياً منصفاً وفي طليعتها القول باجتهاده ، فقال : (فأمّا ما نقلَهُ من أقوال – يقصد السّخاوي – ما ذكرَهُ العلماءُ مما يؤذِن بالحطِّ من صاحب الترجمة – السيوطي – ، فسبب ذلك دعواه الاجتهاد كما صرَحَ به ، وما زالَ هذا دأبُ الناس مع مَن بلغ تلك الرتبة ....، فإنَّ مؤلفاتَهُ انتشرتْ في الأقطار ، وسارتْ بها الرُّكبانُ إلى الأنجادِ والأغوار ، ورفعَ اللهُ له من الذِّكرِ الحسنِ والثناءِ الجميلِ ما لم يكن لأحدٍ من معاصريه)[٦٧].

ويبدو مما تقدم أنَّ السيوطي عالمٌ بانت ملامحه لمعاصريه ، ورسَختْ القناعةُ عند أكثر متلقيه ، بأوحديته في عصره [٦٨]، وترقيه مجتهداً مطلقاً قد أسهم الجانب الأدبي وملكته النثرية فيها إلى حدٍّ بعيد ، التي لم تكن قاصرةً عن جانبه العلمي .

فهذا الكمُّ الكبير مما تركه مطبوعاً ومخطوطاً قد جاءَ ممتزجاً بالجانب العلمي، لا ينفي تمكنه الأدبي والنثري ، وإن كان بعض الباحثين يرى أنَّ (ملكاتهُ العلمية أخصبُ من ملكاته الأدبية)[٦٩]، على الرغم من إقراره أنَّ له نشاطاً أدبياً ملحوظاً في عصره ، (فقد كان شاعراً ، كما كان كاتباً ناثراً ،

وعُنى عنايةً بفن المقامات)[٧٠]، ناهيك على ما تضمنته كتبه العلمية في جوانحها من نصوص أدبية شعرية ونثرية ، فكتاب "حسن المحاضرة" له (قيمة أدبية هامة ، فقد أوردَ السيوطي فيه كثيراً من النصوص الشعرية والنثرية ، التي يقل وجودها في غيره من المراجع)[٧١].

ويبدو الأمر مقصوداً لدى السيوطي حينَ يُقدِّمَ نفسَهُ عالماً مُجتهداً ، وهذه العناية العلمية تتضح حين يرتب السيوطي علومه فيقدّم ملكاته العلمية التي تؤهله لذلك ويجعل التَّرسل والإنشاء في رتبة أدنى ، فيقول:(والذي اعتقده أنَّ الذي وصلتُ إليه من هذه العلوم السبعة : " التفسير، والحديث، والفقه ،والنحو ،والمعاني والبديع " ، سوى الفقه والنقول التي اطلعتُ عليها فيها ، لم يصلْ ولا وقف عليه أحد من أشياخي ،فضلاً عمن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخي أوسع فيه نظراً ، وأطول باعاً ، ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الإنشاء والترسل والفرائض)[٧٢].

وكذلك تتضحُ العناية العلمية عنده حينَ يوردُ مؤلفاتَهُ في "حسن المحاضرة" أو كتاب " التحدث بنعمة الله " أو في "رسالة فهرس مؤلفاته"[٧٣]، فيسير في ترتيبها بحسب رؤيته لتبحره في العلوم .

فهو وإنْ قدَّم العلومَ الدينية واللغوية، فإنَّه يدل على أنها هي العلوم التي شغلت الجانب الأكبر من تفكيره، ولذلك فهو مع إشارته إلى أن مرتبته (في الإنشاء والترسل لا تبلغ مرتبة الشهاب محمود، ولا ابن عبد الظاهر، ولا ابن فضل الله "بل هى دون ذلك فى حد التوسط)[٧٤]، لا يعني تواضع ملكاته الأدبية، بقدر ما يعنى تواضعه ونزاهته وموضوعيته في قياس ملكاته الأدبية التي هي أدنى بالنسبة إلى ملكاته العلمية، وإن لم يُقلِّل ذلك من مكانته الأدبية [٧٥].

ولعلَّ ذلك قد ساهمَ بشكلٍ ما في ضعف الاهتمام بأدبه ، قياساً بالكمِ الكبير من مؤلفاته فيه ، ويبدو أنَّ(صفة العالـــــــــــم الديني واللغوي قد حجبت صفة السيوطي الأديب عن كثير من الدارسين)(٧٦)، وقصر الاهتمام بأدبه نثراً ونظماً.

المبحث الثاني : الفنون النثرية في أدب السيوطي :

١ – المقامات :

المقامةُ فنٌ نثري استحدثه بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨ه)، أو سارَ فيه على منوالِ ابن دريد في أحاديثه(٧٧)، أو أنَّه اتبعَ الجاحظُ الذي مهد له مسلكها في بخلائه(٧٨) ، أو غيرها من الآراء التي تداولها الباحثون .

ثُمَّ تبعَهُ الحريري (ت٥٢٦هـــ)، الذي حذا حذوه فألف خمســـين مقامـــة(فأوفى بهذا الفنِ على الغاية)(٧٩)، والتزمَ بما سارَ عليه الهمذاني فـــي شـــكلِ المقامة لكنَّهُ اختلفَ في القصد وكان تعليمياً .

لقد قُدِرَ لهذا الفن النثري من الأدبِ الانتشار الواسع في مشـــرقِ العـــالم الإسلامي ومغربهِ فأضحى مطمحَ المُقلِّدينَ ومَقصد المُتلقِين، فالمقامـــةُ تُشـــكلُ رَصداً للحياة الاجتماعية بكلِّ أبعادها وأشكالها، وترجمة أمينة لنظم العَلاقـــات بين الناسِ مع بعضهم(٨٠).

فيما ذهبَ باحثون آخرون لغايتها التعليمية ،التي سعى لها المقاميون سعياً حثيثاً ، بل (أُريدَ بها التعليم منذ أول الأمر ، ولعلَّها من أجلِ ذلكَ سماها بديع الزمان مقامة ولم يسمها قصة أو حكاية ....، فالحادثة التي تحـــدث للبطـــل لا أهميةَ لها إذ ليست هي الغاية ، وإنما الغايةُ التعليم والأسلوب الـــذي تعـــرض به)(٨١).

ولعلَّ من دواعي هذا الاختلاف في الرؤية للفن المقامي؛ أنَّها لم تبق َعلى شكل واحد ، بل تعددتْ أشكالُها حتّى إذا ما وصلنا للعصر المملوكي وجدناها تفقدُ كثيراً من سِماتِها الأولى في المقامة الأنموذج ، وقد فارقتها في بعضها الآخر فسقطَ منها كلُّ شيء إلاّ الاسم ، وهذا ما دَفَعَ الباحثين لثنائية الاصطلاح والتسمية ، فهي مقامة على هيأة رسالة أو مقالة ، ولا أدلّ على ذلك، حينَ يذكرُ "صاحب الكشف" في وصفه لمقامات السيوطي، فيقول: (المقامات للشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ه ، وهي تسع وعشرون رسالة، كلُّ واحدة منها مقامة)[٨٢]

إنَّ خروجَ المقامة المملوكية من أطر المقامة الأولى، وتحررها من هندستها القائمة على الكدية والاحتيال وغيرها ، لا يعني بالضرورة نقصاً في بنائها ، بل كانت فنّاً قائماً بذاتهِ بين فنونِ النثر ، وما يُرجحُ هذا القول ما نجده من كمٍّ كبير من شواهدها في بطون كتب الأدب ومظانه ، فضلاً عن أسماء الأدباء المنشئين لها حتّى سلكها الأعمُّ الأغلب من كتّاب العصر المملوكي ، مثل الشاب الظريف(ت٦٨٨هـ) وعمر بن الوردي(ت ٧٤٩هـ) وصفي الدين الحلّي(ت ٧٥٠هـ)، وصلاح الدين الصفدي وتقي الدين بن حجة الحموي وغيرهم.

ويُعدُّ السيوطي المقامي الأبرز في عصره - كما يذهب إلى ذلك محمود رزق سليم- وقد رأى أنَّ الوفرة العددية في مقاماته ، التي وصلت لأربعين مقامة (لم يكتبها إلاّ بعد تفكيرٍ وروية وبعد رغبة مبيتة في ابتداع موضوعاتها بما لم يحم حولها سابق)[٨٣] ، ويجدها غيره أشهر المقامات التي صُنِفتْ في عصره[٨٤].

ولا تختلفُ مقاماتُ السيوطي في معظمها عن مقامات العصر المملوكي، التي خلتْ من القصِّ والحوار واختصت بموضوع ما لتعالجه، كما خلت من

عنصر الكدية والاحتيال[٨٥] ، لكنَّ أهميتَها تبرزُ من النَّاحيـة القيميـة ؛ بمـا أضاءته من جوانب مهمة في المجتمع المصري في زمنهِ وما مثلته مـن أداةٍ أدبية كان لها على ما يبدو سطوةٌ في التأثير والانتشار ، وفقَ ما تقـدمَ مـن استيعابها للرد على خصومه واثبات دعوى تقدمه وتفرده[٨٦].

ولا نخالُ السيوطي بمقاماتهِ تلك التي بزَّها خصومَه كان مفارقـاً للـنَّصِ المقامي وبنائهِ في عصره ، حينَ يُطالعنا بمقامات تعتمدُ السَّردَ الوصفي لقضية ما على سبيل الإخبار بصياغة بديعيـة تتـوالى فيهـا التوريـة والجناسـات والسجع[٨٧] ، مثل مقامة بلبل الروضة ، ورشف الزلال وغيرها .

لكننا نجدُ السيوطي في رحلته المكية للحج سنة(٨٦٩ه) في العشرين من عمره ؛ لإثباتِ ملكته الأدبية ينسجُ مقاماتٍ سلكَ فيها مسـلكَ البـديع وهـي : الأسيوطية والجيزية والمكيّة ، واتخذَ لها راويةً وبطلاً ، لكن الكدية والاحتيال ينعدمان فيها[٨٨] .

وقد اصطلحَ بعضُ الباحثين على هذه المقامات بالتقليدية ؛ للتمييز بينهـا وبين مقاماته المُجددة الأخرى فقد اتفقتْ هذهِ المقاماتُ التقليديةُ على الراويـةِ والبطلِ ، في المقامة " المكيّة" ، يصفُ الراويةُ البطلَ في خفةٍ ورشاقةٍ وتـدفق مشاعره نحو مكة المكرمة ،ويسجلُ في لباقة أحاسيسَه حيالهـا ، ثـم تتضـحُ شخصية البطل فإذا هو قادرٌ على حلِّ المشكلاتِ ويجيد الفصل في المعضلات ، وهو عالم شاعر كاتب فقيه لغوي ، ثم يفصح عن نفسه بأبيات من الشـعر ليجعلها خاتمة لمقامته[٨٩] .

لقد اتضحت شخصية السيوطي في مقاماته التقليدية ، فبطلُ مقاماته ، هو شابٌ يبلغُ العشرينَ من عمرهِ ، تميَّزَ بعلمهِ وذكائهِ ، وهي ذات الصفات التـي يسبغها السيوطي عن نفسه بعد ما ناله من تعرض لشخصه في مجلس قاضي

مكة "برهان الدين البقاعي" [٩٠] ؛ فكأنَّ المقامةَ وسيلةٌ وغاية عبَّرَ فيها عن ذاتِه ، ونفَّسَ فيها عن مشاعره المكبوتة.

ولعلَّ الرأي القائل بعجز السيوطي عن كتابة مقامات تضاهي البديع والحريري فَعَدَلَ عن الشكلِ المقامي الأول[٩١]، فيه هضمٌ لإمكانياته النثرية لاسيّما في الفن المقامي، فهو وإن لم يبلغ مبلغ البديع والحريري في الصياغة المقامية الأولى ، لكنَّهُ سارَ على نهج كتّاب عصره ، إذ جعلوا الفن المقامي أكثر مرونة في الصياغة والمضمون ،الذي أتسع ليشمل الوصف والفكاهة والوعظ والمسائل الشخصية.

فهو كتبَ مقاماتٌ ابتدعَ لها راوية وأبطالا، واشتملت على قصٍّ كمقامة الرَّياحين ، لكنَّ اتفاق أدباء العصر على مفارقة النموذج البديعي يتفقُ وثقافة العصر الموسوعية ، حتّى أضحتْ المقامةُ بشكلها الواسع قريبة لتعريفها اللغوي كما عرفها الزمخشري في أساس البلاغة أنها (تطلق على الخطبة والعظة)[٩٢]في كثير من موضوعاتها .

لقد تعددتْ الآراءُ في تجنيس وتصنيف المقامات التي جاءت بعد الحريري دون أن تلتزمَ بالقواعد المألوفة ، حيث ظهرت لديهم مصطلحات متعددة مثل : المقامات الصوفية والمقامات الوعظية[٩٣]، وهي تسميات تنطبق على المضمون والمحتوى ولا تنطبق على الشكل والبنية .

لكن تعدد الآراء يشتد أمام نص المقامة السيوطية التي ربما تعد الأكثر تحدياً من بين النصوص المقامية ؛ لأنها لم تأتِ على نمط ثابتٍ كمقامات الزمخشري الوعظية التي جاءت اقرب ما تكون للمقالة[٩٤] ، وهذا ما دفعَ الباحثين أن يجترحوا تقسيمات تتوافق مع مضمون المقامة وموضوعها ، مثل تقسيم الدكتور الشكعة لمقامات السيوطي فوجدها على أنساق مختلفة وعلى النحو الآتي[٩٥] :

- **المقامة المقالة** : وذهب فيها إلى أنّها أربعة أقسام تتباين وفق مضـــامينها فتكون: مقالةً ذاتية ومثالها المقامة باللؤلؤية ، والمقالة العلمية ومثالها المقامة السندسية ، ومقالة وعظية كما في مقامة الحمى، ومقالة أدبية ومثالها في مقامة روضة مصر .
- **المقامة المفاخرة** : وتتمثلُ في حشد المتجانسات من قبيــل بذاتـــه لأجــلِ التفاخر بينها ، وتتمثل في المقامة الياقوتية والّرياحين والتُّفاحية .
- **المقامة المناظرة** :وهي التي يجتمعُ فيها شخوصُ أربابِ العلم في التنـــاظرِ على شيءٍ معين ، كمقامة رشف الزلال والطاعونية .
- **المقامة القصصية التقليدية** : وهي التي انشأها في رحلته للحج في بدايـــة شبابه وتتمثل في المقامات الأربع : المكيّة والجِيزية والأسيوطية والمصرية .

ومن الباحثين مَنْ يزيدُ عليها أنواعاً أُخرى ، مثل مقامات البحوث ، ومقامـــة الرسائل وغيرها (٩٦) .

ولا نجد في هذه التقسيمات التي تذهب مذاهب شتى وفــق النظـــر إلـــى الموضوعات والأغراض اتفاقاً ، لأنَّ الأغراضَ قد تتجاور وتزدحم في مقامة ما ، كما أنَّ الأساليب هي الأُخرى متداخلة فترى المقامة تتوزع على مسميات متباينة ، ولعلَّ التداخلَ مع الفنون الأدبية في المقامة حاصل من طبيعتها، فهي (مندرجةٌ في دائـــــرةِ التعدد والمزيج)(٩٧)،وبالتالي تقسيم المقامة الســـيوطية ابتغاء تحديدها لا يكون حاصلاً ؛ لتنوعها الكبير في الموضوعات والأساليب ، وهو شأن المقامة في العصر المملوكي بشكل عام.

٢- الرسائل :

ازدهرَ فنُ الكتابةِ والرسائل في العصر المملوكي ، واستُحدِثَتْ الوظائفُ بما ينسجم وتوسع الدولة وأنماط إدارتها ، وارتبـــاط الرســـائل فـــي الدولـــة ودواوينها لم يجعلها حبيسة أروقة الحكم وممتهنيه ، بل أضحت مادة جماليـــة

يسعى لتدونيها الناسخون ، ويتداولها أرباب الأدب ومتذوقوه من القرّاء على مختلف مشاربهم ، وما حفظته الكتب الأدبية والتاريخية وحتى الدينية من نماذج لتلك الرسائل على حد سواء يؤكد هذا الأمر(٩٨).

وقد سارتْ إلى جنب الرسائلِ الديوانية الرسائلُ الاخوانية ،(فهي متأثرة بمصطلحاتِ الرَّسائل الديوانية ؛ لأنَّ أكثرَ الأدباء المتراسلين كانوا من أصحاب الديوان)(٩٩) وقد عدَّها القلقشندي جزءاً من الرسائل الديوانية، إذ ضمّتْ عنده موضوعات متعددة كالتَّهاني والتعازي والملاطفة والتهادي والشفاعات والعنايات، والاستزادة واحتطاب المودة وافتتاح المكاتبة وخطبة النساء ، والاسترضاء والاستعطاف والاعتذار والشكوى والشكر والعتاب (١٠٠) وغيرها .

لقد سارت الرسائلُ سيراً حثيثاً في ركب الرسائل الديوانية فتأثرت بها ، وتجسدت صورة هذا التأثر في أسلوبها البديعي ومصطلحات الرسائل الديوانية ، والبناء الهندسي المشترك بينهما حين تبدأ بخطبة تشتمل على تحميدات ثم استهلالات بارعة وصولاً لعرض الموضوع ثم الخاتمة ، ولا تخلو من الأدعية المناسبة ، وذكر الألقاب وتضمينها آي القران الكريم والأبيات الشعرية (١٠١).

كما مثّلتْ الرسائل المجتمع المصري خيرَ تمثيل وشاركت الناس في جوانب الحياة لاهيها وباكيها ، واتخذها الأدباء وسيلة يُضمنونها العتاب والشكوى ، وعرض مواجدهم وهمومهم(١٠٢).

مثَّلت الرسائلُ جانباً مهماً من جوانبِ النثر الفني عند السيوطي ، واتخذت السِّمة نفسها التي ساق بها تصانيفه ، وهي الكثرة والتنوع ،على الرَّغم من أن أغلبها كان في الأغراض الدينية ، وما يتعلق بها من نصح وإرشاد .

كما أن شهرتهُ في(البلاد الإسلامية ، إماماً وعالماً ومفكـراً ، سـاهمَ أن يكون نصيب الرسائل والمكاتبات من يوم السيوطي غير قليل)(١٠٣)، وكانت في مجملها تناقشُ أمورَ الدُّنيا والدين،وقد حوى كتاب" الحاوي" جزءاً منها .

أضف إلى ذلك أنَّ التداخلَ بين الفنون الأدبيـة، لاسـيّما بـين المقامـة والرسالة في العصر المملوكي ؛ قد جعلَ الرسائلَ تـزاحم المقامـة وتتـداخل معها، حتَى وجدنا مما اصطلح عليه مقامات هي للرسائل اقرب ؛ لاشـتمالها على ملامح الرسالة بشكل عام (١٠٤).

فقد عرض في بعض مقاماته لشخصٍ مخصوص ، واستهلها بالبسـملة والتحميد وعرض الأفكار بصياغة بديعية غايتها التوصيلية واضحة ، فضـلاً على الغاية الاقناعية بما يفيض عليها من أدلة وشواهد ، ولعلَّ مقاماتـه فـي خصوماتهِ العلمية تسير في هذا المنحى ، لاسيّما تلك التي تميـزت بجانبهـا الخطابي وقد عنونها باسم المُخاطب والمرسل إليه صراحةً ، وما كان فيها من أخذ ورد ، فضلاً على اتصال أحداثها وفق تصاعد الردود والمخاطبات بـين الطرفين (١٠٥).

ووفقاً للتقسيمِ بحسب الموضوع سنُجمِلُ الأمرَ فـي رسـائل السـيوطي وموضوعاتها ، التي نعتقد أنَّها سارت في كل موضوعٍ شـغله مـع تصـدّر الموضوعات الدينية بحكم مكانته ودرجته العلمية والدينية ، فضلاً عن الجانب الذاتي الذي برز جلياً في ردوده وحتّى في رسائله الوعظية .

ونجد رسائلها شملت التقسيمات العامة لفن الرسائل عموما وهي :

- **الرسائل الديوانية** : قد يكون مستغرباً أنْ نطرحَ هذا النوعَ على جزءٍ من نثر السيوطي الرسائلي، لكنه له حضور في رسـائل السـيوطي وإن كـان حضوراً نزراً ، ولا نقصد به أنَّه امتهن هذه الوظيفة ، بل القصد أنَّه كتبَ من

إنشائه فنوناً نثرية تخصُّ الرسائل الديوانية ، ومما يبدو فقد كان مهتما بهـا ، ومُطلعاً على فنونها .

في كتاب " حُسن المحاضرة " ، عَرَضَ لبعض فنون الكتابة الديوانية في سرده لأحداث العصر وظواهره ، وذكر أعلامها وكتاب السّر حتى زمانه ، فضلاً على أنَّ في ترجمته لأبيه – وكان معتزاً به– قد صرّح بتمكنه في الإنشاء الديواني فيقول:(برع في كل الفنون ، وكتب الخط المنسوب، وبلغ في كتابة التوقيع النهاية ، وأقرَّ له كل من رآه بالبراعة في الإنشاء)[١٠٦].أمّا هو فقد كتب تقليداً لسلطان التكرور[***]، ويبدو الأمر نفسه حصل مع ملك الهند حين قَدِمَ على الخليفة "المتوكل على الله "[١٠٧].

والتقاليد : من أهم الرسائل الديوانية ، وهي بمثابة أمر تعيين يصدر إلى موظف من كبار موظفي الدولة ويُكتَبُ على لسان السلطانِ بقلم صاحب الديوان ، وللتقاليد أسسٌ في الكتابة وشرائط لا يعيها إلاّ من عَرف الكتابة الديوانية وتقسيماتها ، ويبدو أنَّها – أي التقاليد – صنف عالي من صنوف الكتابة الإنشائية [١٠٨].

- **الرسائل الإخوانية** : وهي الرسائلُ التي تداولها وتبادلها مع أشخاص حدَّد أسماءهم في رسائلهِ وقد أختلفتْ أغراضُ هذه الرسائل وموضوعاتها ، ولكنها في الغالب تسير في مسلك العلم الشرعي والإفتاء، وفي كتاب الحاوي نماذج لتلك الرسائل التي تصله وفي الغالب أسلوبها علمي صرف، يناقش أمور الدنيا والدين ، فقد أرسل أحد شيوخ التكرور سنة ٨٩٨ه رسالةً تحتوي على أسئلة فقهية مختلفة، أجاب عنها السيوطي في رسالة سمّاها "فتح المطلب المبرور ، وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور"[١٠٩] ، وكان يطلق على الرسالة أحياناً مسمى الكتاب في وصفه لرسالة التكرور في الحاوي للفتاوي ، وقد كتب رسالته وسلك فيها البناء الرسائلي في ذكر المُرسِّل

والمُرسَّل إليه بعد البسملة والتحميد ، ثم عرض أجوبتهِ دون أنْ يسهبَ في جوابها ثم ختمها بالسلام (١١٠) ، ولعله كان مكثاراً في استقبال هكذا رسائل تقدم إليه من البلدان الإسلامية كافة طلباً للإفتاء والإجابة (١١١).

وللسيوطي رسائلٌ تناولت الجانب الذاتي وعلاقاته مع علماء عصره ، وكعادته غلب العلم على كل تفاصيله ، ففي رحلته للحج حصلت قطيعةٌ بينه وبين أحد تلامذة والده ، قاضي الشافعية بمكة " برهان الدين بن ظهيرة " ، يقول في بواعث الخصومة بينهما:(فقامَ في الواقع بحقوق والدي وأكرمني ، ثم مشت بيننا الأعداءُ فوقعت بيننا وقعة طالت مدتها عشرين سنة ، ثم أرسلَ يطلبُ من مصنفاتي، فحصل منها جملة فأرسلتُ له في سنة ٨٨٨ه كتاباً بالصلح)(١١٢).

ومما يجري في هذا السياق يمكن عدّ "النجح في الإجابة الى الصلح " رسالةً ، على الرغم من أن بعضهم عَدّها مقامة (١١٣)، وقد كتب بها إلى" المقرِّ الأشرف القاضي تقي الدين أبي بكر بن مُزهر"(****)، كاتب السر في الصلح مع الشيخ الجوجري وقد جرت بينهما خصومات .

وهناك الرسائل الوعظية التي صاغها وقد ذكر تلميذه" الشاذلي: رسالةً وعظية قال إنها أول رسالة له، وهي رسالة " الاستيقاظ والتوبة "(١١٤)، وهي مقتضبة فيها استعراض لسماته الشخصية في الطفولة وشمائله من حُسن خلق وتدين ، وهما أصل المسلم الحق عنده .

ومنها "الرسالة السلطانية "، وفيها جملة من الأحاديث المروية في نهي العلماء عن التردد الى السلاطين ، أملاها على مبعوث السلطان حين ألحَّ في طلب الطلوع إليه ، يقول في تأثيرها على السلطان وقد أوغر صدره خصومه تحريضاً على السيوطي كابن الكركي : (فأجاب أحسن الجواب – يقصد

السلطان – وبلغني أنه قال : لو أخذ لي عصا وضربني بها بعد هذا لم أخاطبه)[١١٥].

أمّا الرسائل الأدبية فتعددت موضوعاتها ، وتميزت بصياغتها البديعية وخلوها من مرسل بعينه ، بل هي موجهة للقارئ عموماً وقد يبزُّ في بعضها خصومه أو يشيد بعلمه .

كتب السيوطي رسائل تتناول عدّة الحرب وأدواته ، فله رسالة "غرس النشّاب"، ورسالة "السماح في أخبار الرماح"[١١٦]، والمستظرف في أخبار النساء وغيرها كثير ، وقد صاغ السيوطي كثيراً من رسائله بأسلوب جَمَعَها من المصادر وترتيبها وضبطها كأنه ينشد لغاية أدبية تعليمية للموضوع الذي يكتب فيه ، ويغنيها بما مسَّ الموضوع من اقتباسات وتضمين من آي كريم وأحاديث نبوية وأبيات شعرية .

٣- المقالة :

إنَّ الشكلَ الأدبي المتداول الآن للمقالة يقرُّ بفضلِ ظهورها وتطورها للغرب في العصر الحديث على يد الكاتب الفرنسي مونتين (١٥٣٣- ١٥٩٢) وارتباطها بالصحافة تحديداً ، لكن بعض الباحثين ذهب إلى وجود بذور المقالة في الآداب القديمة على نحو ما ، آخذين من تعريفها بأنها تعالج موضوعاً محدداً وتعتمد في أسلوبها على الحديث المباشر ليُبين الكاتب عن ذاتيته في إطار عرضٍ أخاذ يؤثر في النفس ، صورة تسوقها صورة مستحدثة لما أنشأه العرب من خطب ومقامات وفصول ورسائل[١١٧] ، فرأى" محمد يوسف نجم" أنَّ لها جذوراً في الأدب العربي منذ القرن الثاني للهجرة ، وتمثلت على أحسن صورها في الرسالة ولاسيَّما الرسائل الاخوانية ، ووجد أنَّ أمثلةَ المقالة في كتب الأدب العربي كثيرةٌ ، فاختار منها "رسالة الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز في صفة الإمام العادل" مثالاً جيداً على المقالة الأخلاقية [١١٨].

ثم ذهب أبعد من ذلك ليرى رسائل الجاحظ وفصول كتبه وكتاب البخلاء على وجه التحديد خير مثال على النموذج المقالي في الأدب القديم [١١٩].

ولعل ربط المقال بالرسائل الاخوانية ؛ متعلقٌ بما يصوره هذا الفن النثري من تجسيد أواصر التقارب اجتماعياً بين منشئها والآخر (المرسل والمرسل إليه)، فضلاً لما تدخره هذه الرسائل من طاقة متسعة في الموضوعات حتى وصل أمرها لاستلاب موضوعات الشعر ، فظهرت على نطاق واسع في العصر المملوكي رسائل المجونيات والتغزل بالغلمان والاستدعاء لمجالس اللهو فضلاً عن الرثاء والوصف [١٢٠].

بيدَ أنّنا لا نجد تصريحاً لهذا الفن الذي خرج من الرسالة والخطابة والمقامة كما ذهب إليه الباحثون ولم يفطن له القدماء ، حتّى أنَّ حدود المصطلح ذهبت لغير وجهة ، فهي بحث في مسألة أو مذهب من المذاهب الدينية أو فصل في كتاب.

فاستخدمها أبو الحسن الأشعري في كتابه " مقالات الإسلاميين " ، بمعنى المذهب ، وفي حديث أبي حيان التوحيدي في الصاحب بن عبّاد قال: (إنَّ الرَّجلَ كثيرُ المحفوظ ، حاضرُ الجواب فصيح اللسان ، يتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية)[١٢١]، كما قسّم القلقشندي كتابه "صبح الأعشى " إلى مقالات وهي بمعنى فصول أو أبواب .

مهما يكن من أمر، فالمقالة في كثير من تعريفاتها تقترب من الرسالة، لكنها محدودة الطول ، والمقالة لا تحاول أنْ تشتمل على كلِّ الحقائق والأفكار المتصلة بموضوعها ومشتركاتها الرسائلية يبدو في تضمنتها لعناصر مشتركة من مقدمة وعرض وخاتمة أو وفي خصائصها المرتبطة بذات كاتبها ولغته التعبيرية المؤثرة والأسلوب الخاص والمتميز واستخدام اللغة التي تعبر عن جماليات خاصة اذ تثير الانفعال وتستند إلى الخيال والعبارات الموسيقية

والاستشهاد من القرآن الكريم والحديث الشريف والتضمين من الشعر واختيار بداية مشوقة وخاتمة تعطي القارئ شعوراً بالإقناع والرضا باكتمال الموضوع(١٢٢).

فضلاً عن موضوعاتها التي لا تخرج عن ميدان الرسالة ، سواء أكانت ذاتية أم أدبية أم وعظية أو وصفية ، التي نجدها في الرسائل حتى في التقسيم الآخر للمقالة بين الذاتية والموضوعية (١٢٣).

هذه الرؤية لفن المقالة ، قد مهدت القول للباحثين أن يسحبوا بعض النصوص النثرية المتداخلة لمنطقة المقالة ويجترحون لها عنوانات تتداخل بين الأجناس والموضوعات(١٢٤).

ولم يسلم السيوطي صاحب التصانيف الكثيرة من هذا الأمر ، فالدكتور مصطفى الشكعة يرى في أدب السيوطي النثري ملامح واضحة للمقالة ، مما شجعه أن يسحب بعض مقاماته لتكون(المقامة المقالة)؛ لخلوها من الجانب القصصي ، وتقسيم موضوعاتها بين : علمية أو ذاتية أو مقالة أدبية أو تارة رابعة تكون مقالة وعظية (١٢٥)، وفق التقسيم المعاصر للمقالة ، وجعل من أمثلتها " المقامة السندسية في النسبة المصطفوية "في ردّه قول خصومه حول نجاة والدي النبي بالدليل النقلي والعقلي ، وكذلك " اللؤلؤية " في ترك التدريس والإفتاء والإبانة عن إحساسه بالظلم..

ويعللُ باحثٌ آخر في مقالية مقامات السيوطي وفق تشريحها لفنون متعددة لأنه(اتجه فيها اتجاهاً مباشراً نحو الجدل والقضايا العامة للمجتمع وإظهار طاقاته المتنوعة في صورة المقال المعاصر)(١٢٦).

فيما يذهب باحث آخر لرفض هذا التقسيم لأن نثر السيوطي يتأبى قبوله بلحاظ (انَّه يتصل بربط هذا النوع من المقامات بالمقالة، وقد تداخلت المقالة مع

الرسالة بل اختلفت الرسائل، نفسها، شكلا وموضوعا، كما تـداخلت الرسـالة بالكتاب والمقامة السيوطية شيء مختلف عن هذه جميعاً)(١٢٧) .

ونحسبُ الأمرَ يرتبطُ نوعاً ما بثقافة السيوطي الموسوعية التي وجدنا فيها التبحر في العلوم والفنون وما يستدعيه عصر الموسوعات من قطف زهرة من كلِّ بستانٍ ، وإلاَّ فالتقصير مدعاة جهل كما ذهـب السـخاوي حـين وجـد السيوطي ينأى عن الحساب فلم تشفع عنده براعته في العلوم .

وسوقاً لفن المقالة الذي نُسلِّم باشتمال نثر السيوطي عليه وفقـاً لتعريفـه وخصائصه ومضامينه ، حتى صارَ نوعا من الرسالة الاخوانية علـى سـبيل الاختصار ،وسلكَ أشكال المقالة الذاتية أو الموضوعية ، وهذا ما نجدُ ملامحه في بعض تصانيفه ، فعلى سبيل المثال " السُبل الجلية في الآباء العلية "(١٢٨) ، محتواه بضعُ وريقات، تناول فيه قضية محددة هي نجاة والدي النبي ﷺ ، بعد أن اشبعها ردّاً واعتراضاً لما ذهب إليه خصومه .

ولعلَّهُ سلكَ شكلَ المقالة الموضوعية في تناول هذا الأمر ، فقد عرض رؤيته في هذا المقال وفق أربعة سُبل ،اتسم طرحها بالتسلسل المنطقي العلمي ، وعززها بما أجمع عليه العلماء وتواترت في إثباته الأخبار ، بعـد أن بـدأ بمقدمة قصيرة ثم يعزز ما قدمه من سبل بإيراد أبيات شعرية تتعلق بالموضوع ، وصولاً لخاتمة أثبتها نتيجة لما عرضه وعززه بالأدلة .

والحال يتكرر في تصنيف آخر للقضية نفسها ، ويقاربـه فـي البنـاء الشكلي بين مقدمة وعرض وخاتمة فضلاً عن التعزيـز بشـواهد شـعرية ، واقتضاب الطرح وتكثيفه في " الدُّرج المنيفة في الآباء الشريفة ".

٣- فنون نثرية أخرى:

لم يكن النثر الفني عند السيوطي مقتصراً عمّا تقدم من فنـون نثريـة وحسب بل له تصانيف في فنون أخرى لعلَّ بعضها يمكن عـدَّه فـي " أدب

الرحلة " ؛ وهو من الفنون الأدبية المستحدثة ، ولون من ألوانه ، يقــول أدب الرحلة على كتابة الرَّحالة لتفاصيل رحلته بطريقة المذكرات اليوميــة ، وقــد يتحول هذا اللون الى معجم للسير ، يترجم فيه الكاتب لنفسه وشيوخه وللعلماء الذين التقى بهم ، ومعرض لمختارات أدبية [١٢٩].

ومن هذا المنظور فالرحلة هي (سيرة تعتمد على حكــي سِــفر الــذات ورؤاها ومنظورها بجمالية وفنية ، يتجسد في حضــور مبــدأ تمثــل الــذات وعلاقاتها بالآخر)[١٣٠]، ولعلها وفق ذلك أقرب ما تكون للسيرة الذاتية من فنون الأدب .

والسيوطي شأنه شأن علماء عصره ، قامَ برحلاتٍ عديدة أهمها رحلته للحجاز سنة ٨٦٩ هــ ، لأداء فريضة الحج ،وجاورَ فيها عاماً كاملاً التقى فيها العلماء وناظرهم في مسائل كثيرة ليثبت علمه وتقدمه وقد سَجَلَ رحلته هذه في رسالة سمّاها " الرحلة الزكية في الرحلة المكية"، قال فيها :(وقد جمعتُ فوائدَ هــذه الرحلة وما وقعَ لي بها ، وما ألَّفته أو طالعته أو نظمته ، ومَن أخذت عنه من شيوخ الرواية)[١٣١]

كما أنَّ له رحلات داخلية في مدن مصر أعقبت رحلته الحجازية ، يقــول فيها : (فلما رجعتُ إلى الوطن سنة ٨٧٠ هــ ، أنشأت رحلة أخــرى إلــى دمياط والإسكندرية وأعمالهما ،وقد جمعت فوائد هذه الرحلة في تأليف يسمى " الاغتباط في الرحلة الى الإسكندرية ودمياط " ، وتسمى أيضا " قطف الزهــر في رحلة شهر"[١٣٢]، وقد ذكرَ في" حسن المحاضرة " ضمن فهرس مؤلفاتــه رحلات أخرى هي"الرحلة الفيومية والرحلة الدمياطية ، والرحلة المكية "[١٣٣].

ومن الفنون النثرية الأخرى هو فن الحكم والأمثال ، وهو مــن الفنــون العربية القديمة ، يقوم على معرفة الحقائق على ما هي عليه بقدر الاستطاعة ،

فيصدر من ذلك الكلام القائم على العلم الموجه الى الصواب والسداد في القول والعمل(١٣٤).

والحكمة أو المثل كلمة في سطور قليلة تُلقى إلى المتلقي رجاء الإصلاح وتهذيب النفس وللسيوطي رسالة في الحكم والأمثال سمّاها " درر الكلم وغرر الحكم "(١٣٥)ضمَّنها مجموعةً من الحكم والنصائح على نسق الأمثال ، بحيث جعلَ كل حكمة أو مَثَل يتكون من جملتين قصيرتين في الغالب تكمّلُ الجملة الثانية الجملة الأولى .

وقد صنَّفها السيوطي أبان رحلته المكية في بداية رحلته العلمية على نمط " الكلم النوابغ " للزمخشري ؛ لإظهار قدرته وبراعته ومجاراة كبار العلماء .

كما رغب في الكشف عن مواهبه الأدبية في ميادين الإنشاء والترسل وما له من اقتدار فني في توليد المعاني واستنباطها وصياغتها في شكل حكم ومواعظ (١٣٦)، يقول في بعضها :(اعضض على الحق بناجذيك ، واغضض على الخلق شاهديك ، خيرُ الكلام كلام الأخيار ، وخيرُ العلماء عالم الأخبار ، وافق صديقك في نهيه وأمره ، وكن معه في خيره وشره ، نِعمَ الصديق الصِّديق)(١٣٧).

كما كان في بعض مقدمات وخطب كتبه جانب لنثره ، إذ اشتملت بعضها وإن كان متن الكتاب علمياً صرفاً فإنَّه لم يخلُ من مقدمات شرحَ فيها منهجه وحدد مقصده من تأليفه للكتاب ، وبعض المقدمات تحدث فيها عن نفسه بأسلوب أدبي رائق، حَفَّه بالبديع والسجع ، كما في مقدمة كتاب " تدريب الراوي " حيث حوى حديثاً خاصاً عن نفسه وفيه يقول : (علمُ الحديث رفيع القدر ، عظيم الفخر ، شريف الذكر ، لا يعتني به إلاّ كلُّ حبر ، ولا يحرمه إلاّ كلُّ غمر ، ولا تغنى محاسنه على ممر الدهر ، وكنتُ ممن عبرَ الى لجَّةِ

قاموسه ، حيث وقف غيري بشاطئه ، ولم أكتفِ بورود مجاريه ، حتى بقرتُ عن منبعه ومناشئه)[١٣٨].

كما يطالعنا الشاذلي في سيرة حياة السيوطي في كتاب "بهجة العابدين "بمقدمة حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي المسماة "نواهد الأبكار وشوارد الأفكار"وقد أُعجِبَ بها وبأسلوبها الفني[١٣٩]

يقول فيها الشاذلي: (أظهرَ فيها من البلاغة والفصاحة ما يعجز عنه علماء عصره ، في شامه ومصره ، بحيث أنَّ شيخ الإسلام زكريا الشافعي[*****] – رحمه الله – لما طالعها على حاشيته ، صار يعجب من فصاحة الشيخ ويثني عليه الثناء الحسن ،وكان يعظمه لما ثبت عنده من فصاحته ، وغزارة علمه وسعة اطلاعه)[١٤٠].

أضف إلى ذلك فن الألغاز الذي زها وشاع في العصر المملوكي ، وقد خاضَ فيه السيوطي نظماً ونثراً ، لإثبات مقدرته وسعة علمه ، وكانت موضوعات ألغازه علمية أو تجمعه مناظرة مع أقرانه فيبادر للغز ، كتلك التي صاغها في رحلته الى الإسكندرية مع قاضيها [١٤١] .

وقد حوى كتابه" الأشباه والنظائر"[١٤٢] ، مثالاً للألغاز النحوية ، هي مبثوثة في تصانيفه كما ضمّنها مقاماته التي أنشأها في رحلته المكية ، فيقول : (ثم اختبرت خيول ذهني في إنشاء مقامات ، فسارَ جوادها في هذا الميدان أحسن سير ، وأحرزت قصبات السبق ولا ضير ، فوضعت هذه المقامات اليسيرة ، وضمنتها جملة من الألغاز الفقهية والنحوية وبدائع المعاني الأدبية)[١٤٣].

والفنون النثرية متداخلة في تصانيفه الكثيرة ، وأكثر هذه الفنون يبحث في إظهار البراعة والمقدرة الأدبية لاهتمامه بها وإشغال فكره في إنشائها .

الهوامش

(١) المماليك البرجية غالبهم من العنصر الشركسي وليسوا أتراكاً كالمماليك البحرية ، وقد اشتراهم السلطان المنصور قلاوون وجعلهم في ابراج القلعة فصارت البرجية اسماً لهم ، وامتدت دولتهم حتى سقوطها على يد السلطان العثماني سليم سنة ٩٢٣هـ ، للمزيد ينظر : الأيوبيون والمماليك ، سعيد عاشور :٩٥.

(٢) ينظر : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام:١١٥-١١٨.

(٣) ينظر : تاريخ الأدب العربي – العصر المملوكي : ٥٥٤.

(٤) ينظر : آفاق الشعر في العصر المملوكي : ٥٥.

(٥) م. ن : ٤٥٣.

(*) كمال الدين بن الهمام (٧٩٠-٨٦١ه) محمد بن عبد الواحد بن عميد ، كان علامة محققاً ، ينظر ترجمته :حسن المحاضرة :٤٧٤/١.

(٦) دراسات في أدب مصر الإسلامية :٢٦٠.

(٧) ينظر : م . ن : :٢٣٤.

(٨) تاريخ ابن خلدون : طبعة دار الفكر : ١/٧٦٣.
(٩) ينظر : صبح الأعشى : ١/١٤٠ وما بعدها.
(١٠) مؤرخو مصر الإسلامية : ٦٨.
(١١) مؤرخو مصر الإسلامية : ١٤٢.
(١٢) بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين السيوطي: ٤١.
(١٣) بهجة العابدين : ١٢٠.
(١٤) التحدث بنعمة الله : ٥.
(١٥) ينظر :جلال الدين السيوطي ، مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية : ٦١ وما بعدها.
(١٦) م . ن : ١/٣٣٨.
(١٧) ينظر : شرح مقامات السيوطي :: ١/٤٦.
(١٨) ينظر : أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة ،: ٣٧.
(١٩) مقامات السيوطي الأدبية والطبيّة : ٥.
(٢٠) مقامات السيوطي ، دراسة في فن المقامة المصرية: ١٣٩.
(٢١) ينظر : حسن المحاضرة : ١/٣٣٩-٣٤٤.
(٢٢) على سبيل المثال خصومة السيوطي مع القسطلاني الذي أتهمه السيوطي بسرقة كتبه فجاءه حافياً تكفيراً لخطئه فطرق بابه وعفا عنه ، وخصومته مع برهان الدين البقاعي التي انتهت بالصلح ، ينظر : جلال الدين السيوطي، مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية :٩٨.
(٢٣) ينظر : م . ن :٨٢ وما بعدها .
(٢٤) شرح مقامات السيوطي :: ٢/ ٩٥٢.
(٢٥) التبرك المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي : ٢٣٠.

(**) من كبار فقهاء الشافعية ،وهو شيخ السيوطي ، ينظر ترجمته : حسن المحاضرة :١/٤٤٤.

(٢٦) الذيل على رفع الأصر : ٢٨٦، إنباء الغمر : ٤/ ٤٧٤.

(٢٧) ينظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : المجلد السادس : ١٨١.

(٢٨) ينظر : بهجة العابدين :١٢٢.

(٢٩) ينظر : شرح مقامات السيوطي : ١/٣٧٠ ، ٥٥٤ ، ٢/٩٠١، ٩٣٣.

(٣٠) ينظر : التحدث بنعمة الله : ١٨٥ .

(٣١) جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية : ٨٢.

(٣٢) لعل خصومته مع السّخاوي وردوده عليه تصب في هذا المنحى ، ينظر : شرح مقامات السيوطي : ١/٥٥٤.

(٣٣) ينظر : التحدث بنعمة الله : ١٨٦ وما بعدها .

(٣٤) ينظر :شرح مقامات السيوطي :٢/٨١٨ ، ٨٥٦.

(٣٥) ينظر : م . ن : ١/١٠١.

(٣٦) شرح مقامات السيوطي: ٢/٦٣٧.

(٣٧) م . ن : :٢/٦١٧-٦١٨.

(٣٨) ينظر : شرح مقامات السيوطي : ١/٧٣.

(٣٩) الضوء اللامع : ٤/١٦٥.

(٤٠) ينظر : الضوء اللامع :٤/٦٨.

(٤١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع : ١/٣٣٣-٣٣٤.

(٤٢) ينظر : جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية :٨٦.

(٤٣) المرجع نفسه : ١/٣٦٥.

(٤٤) بهجة العابدين بترجمة حافظ العصر جلال الدين السيوطي :١١٩.

(٤٥) م ن :٦٢٢/٢-٦٢٣.

(٤٦) م . ن : ٦٢٤/٢ .

(٤٧) شرح مقامات السيوطي : ٢/ ٦٢٤-٦٢٥.

(٤٨) م . ن : ٦٣٤/٢.

(٤٩) المرجع نفسه : ١٠٤٧/٢ ، مقامة النجح في الاجابة الى الصلح .

(٥٠) ينظر : التحدث بنعمة الله :١١٥.

(٥١) جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية : ١١٩.

(٥٢) ينظر : الحاوي للفتاوي : ٨٦/٢.

(٥٣) الحاوي للفتاوي، رسالة الكشف عن مجاوزة هذه الأُمة الألف : ٨٦/٢.

(٥٤) صون المنطق في الكلام للسيوطي، عن : السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية:١٣٦.

(٥٥) حسن المحاضرة : ٣٣٩/١.

(٥٦) التحدث بنعمة الله : ٧٩. كتاب عنوان الشرف الوافي لإسماعيل بن ابي بكر المقرىء ت ٨٣٧ه ينظـــر ترجمته : بغية الوعاة ٤٤٤/١.

(٥٧) شرح مقامات السيوطي: ٢٢٣/١. نوابغ الكلم ألفه الزمخشري : ينظر : بروكلمان ٢٩٠/١ وما بعدها .

(٥٨) المرجع السابق : ٢٢٢/١ .

(٥٩) ينظر : حسن المحاضرة :٣٣٥/١.

(٦٠) التحدث بنعمة الله : ٢١٧.

(٦١) حسن المحاضرة : ٣٢٩/١.

(٦٢) شرح مقامات السيوطي : ١٠٥٢/٢.

(٦٣) الضوء اللامع : ٤/٦٩.

(٦٤) التحدث بنعمة الله : ١٩٣.

(***) الشيخ تقي الدين السُبكي ت ٧٥٦ هـ،الإمام الفقيه المحدِّث الأصولي ، ينظر ترجمته : حسن المحاضرة ١/٣٢١.

(٦٥) التحث بنعمة الله : ٢٠٥.

(٦٦) ينظر : شرح مقامات السيوطي: ٢/٦٨٤-٦٨٦.

(٦٧) البدر الطالع للشوكاني ، تحقيق :محمد حسن حلاق ، دار ابن كثير ، ط١ ٢٠٠٦ : ٣٧٣.

(٦٨) وما يؤكد ذلك ترجمته عند المؤرخين اللاحقين ، وما أسبغوه من صفات التقدم والعلم ، على سبيل المثال ينظر: شذرات الذهب :١/٧٥.

(٦٩) تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات –مصر : ٤٥٨.

(٧٠) م . ن : ٤٥٧.

(٧١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : المجلد الثالث /٣٧١.

(٧٢) حسن المحاضرة : ١/٣٣٨.

(٧٣) ينظر : م . ن : ١/٣٣٩.

(٧٤) التحدث بنعمة الله : ٢٠٣.

(٧٥) ينظر : السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب التحدث بنعمة الله : ٦٢.

(٧٦) جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية : ١٣٩.

(٧٧) ينظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري: ١٩٨ وما بعدها .

(٧٨) ينظر : بديع الزمان الهمذاني ، مارون عبود : ٣٤.

(٧٩) أدب السيوطي، دراسة نقدية : ٢٠١.

(٨٠) ينظر : مجتمع الهمذاني من خلال مقاماته :٤٢.
(٨١) المقامة ، شوقي ضيف : ٨-٩.
(٨٢)كشف الظنون ، حاجي خليفة : ٢ / ١٧٨٥- ١٧٨٦.
(٨٣)م . ن : المجلد الخامس /٤٢٧.
(٨٤) ينظر : المقامة ، شوقي ضيف : ٧٨.
(٨٥) ينظر : النثر الفني أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان :١٤٩.
(٨٦) ينظر : فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي : ٢٢٥ وما بعدها.
(٨٧)ينظر : م . ن :٢٥٧.
(٨٨)ينظر: السيرة الذاتية للإمام الحافظ جلال الدين السيوطي فى كتاب التحدُّث بنعمة الله :٢٤.
(٨٩) ينظر : السيوطي كاتباً وأديباً : ٤٢٩.
(٩٠) ينظر : التحدث بنعمة الله :٨٠.
(٩١) فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي ، أحمد أمين مصطفى :٢٠٢.
(٩٢) أساس البلاغة :٢/١١١.
(٩٣) ينظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب :١٧٨.
(٩٤) ينظر : السيوطي أديباً وكاتباً :٣٩٧.
(٩٥) ينظر :م . ن : ٣٩٨.
(٩٦) ينظر :أدب السيوطي، دراسة نقدية :٢٤٠.
(٩٧) المقامات ، السرد والانساق الثقافية :٦.
(٩٨) ينظر:عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي :المجلد الخامس :٨٥ وما بعدها.
(٩٩) م . ن:١٥٨-١٥٩.

(١٠٠) ينظر : صبح الأعشى : ٥/٩ وما بعدها .
(١٠١) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : المجلد الخامس :١٥٨.
(١٠٢) ينظر : الأدب في العصر المملوكي محمد زغلول سلام :٥.
(١٠٣) أدب السيوطي ، دراسة نقدية :٢٥٩.
(١٠٤) ينظر : عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي : المجلد الخامس :٤٣٨.
(١٠٥) مثالها مقامة الكاوي في تاريخ السخاوي ، والدوران الفلكي على ابن الكركي وغيرها ، ينظر: شرح مقامات السيوطي : ١/٣٧٠ ، ٢/٩٣٣
(١٠٦) حسن المحاضرة : ١/ ٤٤١، كذلك : نظم العقيان : ٩٥.) ، التحدث : ٨.
(***)التكرور في معجم البلدان لياقوت الحموي : بلاد في أقصى جنوب المغرب : المجلد الثاني : ٣٩٩، وهي بلاد السنغال والنيجر حالياً.
(١٠٧) ينظر : التحدث بنعمة الله : ١٥٧.
(١٠٨) ينظر : صبح الأعشى :٣٤٠/١٤.
(١٠٩) ينظر : الحاوي للفتاوي : ٢٨٥/١.
(١١٠) ينظر الحاوي للفتاوي : ٢٩١/١.
(١١١) يقول السيوطي في التحدث بنعمة الله :(في سنة ثلاث وثمانين أرسل إليَّ من الشام الشيخ برهان الدين البقاعي مطالعة يطلب فيها الكتاب المذكور وقد بلغ أهل الشام خبره فأرسلت له نسخة) ، التحدث بنعمة الله : ١٧١.
(١١٢) التحدث بنعمة الله : ٨٠.
(١١٣) أثبتها سمير الدروبي في كتابه شرح مقامات السيوطي ضمن مقامات السيوطي تحت مسمى – المقامة المُزهرية :١٠٤١/٢ ، كذلك ينظر : أدب السيوطي دراسة نقدية : ٢٠٥.

(***)هو أبو بكر بن محمد بن محمد المعروف بمُزهر الدمشقي ، كان كاتباً للسر بالديار المصرية ت٨٩٣ه .

(١١٤)ينظر : بهجة العابدين في حياة الحافظ جلال الدين السيوطي : ١٧٢.

(١١٥) بهجة العابدين في حياة الحافظ جلال الدين السيوطي: ١٦٣.

(١١٦) حققها الدكتور نوري القيسي في مجلة المورد المجلد ١٢/ العدد الرابع ١٩٨٣ :٧٩.

(١١٧) ينظر : الفنون الأدبية وإعلامها في النهضة العربية ، أنيس المقدسي : ٢٢٦ .

(١١٨) فن المقامة ، محمد يوسف نجم : ١٨. ، ينظر : نص رسالة الحسن البصري : العقد الفريد :١/٣٤ .

(١١٩)م . ن : ٢٠.

(١٢٠) ينظر : الأدب في العصر المملوكي ، محمد زغلول سلام : ٢/١٦.

(١٢١) الإمتاع والمؤانسة ، لأبي حيان التوحيدي : ١/٥٤.

(١٢٢) الفنون الادبية واعلامها في النهضة العربية : ٢٣٠ .

(١٢٣) فن المقامة :٩٥.

(١٢٤)ينظر : السيوطي أديباً وكاتباً :٣٩٩.

(١٢٥) السيوطي كاتباً وأديباً: ٣٩٩ وما بعدها.

(١٢٦) أدب السيوطي دراسة نقدية :٢٥١.

(١٢٧) تداخل الأنواع ، عوض الغباري ١٠

(١٢٨) السبل الجلية في الاباء العلية للسيوطي ، طبعة حيدر آباد الهند ١٣١٦.

(١٢٩) ينظر : أدب الرحلة ، حسني محمد حسين : ١٩.

(١٣٠) الرحلات العربية ، النص وخطاب الهوية : مجلة البلاغة المقارنة ، شعيب حليفي ، العدد /٢٦، الجامعة الامريكية القاهر / ٢٠٠٦: ٥١.

(١٣١) التحدث بنعمة الله : ٧٩.

(١٣٢) م . ن : ٨٣.

(١٣٣) ينظر :حسن المحاضرة : ٣٣٤/١.

(١٣٤) ينظر : الحكم والأمثال ، حنا الفاخوري :٧-٨.

(١٣٥) أورد جزءا منها صاحب كتاب عصر سلاطين المماليك المجلد الخامس :١٠٨ ، وأشار إليها الدكتور الشكعة ويبدو ان التصحيف نالها فكانت عنده (دور الكلم وغرر الحكم) ، ينظر السيوطي أديبا وكاتباً :٣٩٦ ، والأمر نفسه مع صاحب كتاب : أدب السيوطي دراسة نقدية ، فكانت عنده : درر الكلم وعذر الحكم : ٢٨٠ .

(١٣٦) ينظر : شرح مقامات السيوطي :٢٢٣/١.

(١٣٧) شرح مقامات السيوطي:١٧١/١.

(١٣٨) تدريب الراوي : ٣٨/١.

(١٣٩) ينظر : بهجة العابدين في حياة حافظ العصر جلال الدين السيوطي : ١٢٢ وما بعدها .

(****) شيخ الإسلام زكريا الشافعي الأنصاري ، قاضٍ ومفسر ت ٩٢٦ه.

(١٤٠) م . ن : ١٢٢.

(١٤١) ينظر : التحدث بنعمة الله : ٨٤-٨٧.

(١٤٢) ينظر : الأشباه والنظائر : ٣١/٣.

(١٤٣) شرح مقامات السيوطي : ٢٢٣/١.

المصادر والمراجع

- أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة ، محمد رشدي حسن ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ م .
- أدب السيوطي دراسة نقدية، د. قرشي عبادس دندراوي، دار المعارف ، مصر ، (د.ت) .
- الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثماني والعصر الحديث ، محمود رزق سليم ، مطابع دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧.
- الأدب في العصر المملوكي ، محمد زغلول سلام ، ط١ ، منشأة المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٩ م .
- آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي ، الدكتور ياسين الأيوبي ، ط١ ، لبنان ،١٩٩٥ .
- الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي معلمة العلوم الإنسانية ، اياد الطباع ، ط١ ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٩٦.

●الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، مصر ، ١٩٩٦.

●بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ابن إياس ، محمد بن أحمد(٩٣٠هـ) ، تحقيق : محمد مصطفى ، ط٣،الهيئة المصرية العامة ، القاهرة ، ١٩٨٤م.

●البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، الشوكاني (ت ١٢٥٠)، تحقيق : محمد حسن حلاق ، دار ابن كثير ، بيروت ، ط١، ٢٠٠٦م .

●البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق:عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م.

●تاريخ الأدب الجغرافي العربي، كراتشكوفسكي، ترجمة :صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مص، د ت

●تاريخ الأدب العربي ، العصر المملوكي ، د.عمر موسى باشا ، ط١ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٩ م .

●التحدث بنعمة الله ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ،تحقيق : ماري سارتين ، المطبعة العربية الحديثة ن القاهرة ١٩٧٢ م

●تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ، أنيس المقدسي ،ط٣ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٥ م .

●جلال الدين السيوطي : عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي ، طاهر سليمان حمودة ، ط١ ، المكتب الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٨٩م .

- جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ، مصطفى الشكعة ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- جلال الدين السيوطي وأثره في الدراسات اللغوية ، عبد العال سالم مكرم ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٩
- الحاوي للفتاوي ، ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢ م.
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط١ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي ، تقي الدين بن علي ، تحقيق : عصام شعيتو ، ط١ ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨٧ م .
- الرسائل الأدبية (من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة) ، منشورات كلية الاداب بمنوبة ، تونس ، ٢٠٠١ م
- الرمز في مقامات السيوطي : مقامة الرياحين انموذجاً ، سمير محمود الدروبي ،ط١ ، دار البشير ،عمان ، ٢٠٠١ م .
- السماح في أخبار الرماح لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تحقيق : د. أنور سويلم مجلة مجمع اللغة العربية الأردني ، عمان ، العدد ٣٧ ، ذو القعدة ١٤٠٩– وربيع الثاني ١٤١٠ هـ
- سير أعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبي(ت٧٤٨) ، حققه وضبط نصه وعلّق عليه : د.بشار عواد معروف وآخرون مؤسسة الرسالة ، (د.ت) .

- السيوطي كاتباً وأديباً : ضمن كتاب (جلال الدين السيوطي : بحوث أُلقيت في الندوة التي اقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مصطفى الشكعة ، وزارة الثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨ م
- السيوطي النحوي ، عدنان محمد سلمان ، ط١ ، دار الرسالة ، بغداد ، ١٩٧٦م.
- شرح مقامات السيوطي ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ) ، تحقيق : سمير الدروبي ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٩م .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ) ، مكتبة المقدسي ، القاهرة ١٣٥٥ هـ .
- ظاهرة التأليف الموسوعي فى العصر المملوكي فى مصر من منظور حضارى أدبى، الدكتور عوض الغباري ، مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة ، سنة ٢٠٠١. نُشر معدّلا فى كتاب :"المجتمع المصري فى العصريين المملوكى والعثمانى"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧.
- ظاهرة التعدد والكثرة في مؤلفات السيوطي ، سمير الدروبي ، مجلة المنارة ، جامعة آل البيت الأردن ، المجلد ٤ ، العدد ٣ ، آيار ١٩٩٩ م .
- عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ م .
- عصر سلاطين المماليك ، قاسم عبده قاسم ،ط١ ، دار الشروق ، مصر ، ١٩٩٤ م .

- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي ، محمود رزق سليم ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٥٥.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقدهِ، ابن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م.
- فن المقامة بين البديع والحريري والسيوطي ، أحمد مصطفى أمين ،١٩٩١، ط١ ، د ت
- فن المقامة بين المشرق والمغرب ، يوسف نور عوض ، ط١ ، دار القلم ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- فن المقامة في الأدب العربي ، عبد الملك مرتاض ، ط٢ ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر والدار التونسية للنشر ،تونس، ١٩٨٨ م .
- الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف ، ط٩ ، دار المعارف ، القاهرة ، (د. ت).
- قراءة في ملامح العصر الوسيط وأساليبه الأدبية ، د. عمران الكبيسي ،مجلة المورد، بغداد ، العدد ٧٤ ،١٣٦٩ هـ
- . كتاب المحاضرات والمحاورات ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق : الدكتور يحيى الجبوري ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت ، ٢٠٠٣.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، (د. ت).
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٩٢

- مقامات السيوطي – دراسة في فن المقامة المصرية ، د. عوض الغباري ، دار الثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥ م .
- مقامات السيوطي ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق : عبد الغفار البنداري – محمد بسيوني زغلول ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦ م .
- مقامات السيوطي ، عبد الملك مرتاض، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٩٦ م
- مقامات السيوطي الأدبية والطبية ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق : محمد ابراهيم سليم ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، د ت
- المقامة ، الدكتور شوقي ضيف ، ط١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .
- – المقامة المصرية وتداخل الأنواع الأدبية ، كتاب المؤتمر الثانى، قسم اللغة العربية، جامعة الزقازيق، بعنوان : "تداخل النصوص والأنواع الأدبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، وزارة الثقافة، مصر، ٢٠٠٩.
- مكتبة الجلال السيوطي ، أحمد الشرقاوي اقبال ، ط١، دار اقبال ، المغرب ، ١٩٧٧م.
- مؤرخو مصر الاسلامية ومصادر التاريخ المصري ، محمد عبد الله عنان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، بلا تاريخ
- النثر الفني أيام المماليك ومن عاصرهم من ذوي السلطان، الدكتور خالد ابراهيم يوسف ، ط١، دارالنهضة العربية بيروت ٢٠٠٨.
- النثر الفني في عهد الدولتين الزنكية والأيوبية في مصر والشام ، زايد محمود مصطفى ، ط١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠٤ م .

- ●النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٣-١٩٧٢م.
- ●نشأة المقامة في الأدب العربي ، د .حسن ،دار المعارف ، القاهرة ، (د. ت).
- ●نظم العقيان في أعيان الأعيان ،السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ) ، حرره فيليب حتي ، المطبعة السورية الأمريكية ، نيويورك ، ١٩٣٧ م .
- ●النقد الأدبي في العصر المملوكي ، عبد العزيز قليقله ، ط١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ن القاهرة ، ١٩٧٣ م .
- ●النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري بين الصفدي ومعاصريه ، محمد علي سلطاني،دار الحكمة، دمشق، ١٩٧٤م
- ●نهاية الأرب في فنون الأدب ، شهاب الدين النويري ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .
- ●الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ، تحقيق : أحمد الأرناؤوط ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠٠ م .

Abstract

THE ARTISTIC IN JALAL ADDIN AL-Suyuti WORKS WHO WAS IN ALL INSPIRATIONS AND ARTISTIC FIELDS

This research is throwing a light to such important creative side of Imam Sayuti personality who was known as preacher ,savant , construer , linguists and syntaxist as the artistic side wasn't obtained a big interest from the researchers .

The research includes two inquires which are :

-The artistic prose inspirations which are highly participated in Sayuti engagement with the artistic prose through over hundred classifications .

-The second inquiry deals with the most prominent prose arts which are contained his artistic prose such as his Maqams and letters that .